ڤولتير

اقرأ

٧٢

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٧٢ — نوفمبر ١٩٤٨



مقدمة

يقول ڤولتير إن الإنسان إذا صادف غرة أدبية رائعة فانه يتلوها باحترام ، ويشعر نحو كاتبها بإعجاب وإجلال ، وأنه لا يتمالك نفسه من معانقته لو كان حاضراً .

على أن جميع الناس لا يأخذون بهذا القول ، ولا يحكمون على عمل بتلك السرعة ، ولا يتخذون من هذا الرأى حجة دامغة . فبعضهم يشترط — قبل معانقة الكاتب والتهليل له — أن يعرف من هو؟ ومن أين جاء ؟ ووسائل معيشته ؟ وبعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك، فيسأل عن صفاته وأخلاقه وتصرفاته « من ناحية المال والنساء » بحجة أنها الوسيلة الوحيدة لمعرفة الرجل وتبين دخيلته ، وبذلك فقط يمكن إدراك حقيقة عمله ومداه، ومن ثم الحكم عليه .

ومع ذلك فقد طالما طرب الإنسان لأشياء وارتاح لها دون أن يعنى بدراسة حياة أصحابها . وأقرب الأمثال فى عهد ڤولتير بالذات أن خادم الشاعر رينيار قرأ ما كتبه الفيلسوف سنيكه عن احتقاره للمال والثروة دون أن يقرأ له شيئاً آخر ، فتساءل عما

إذا كان قد خسر فى المقامرة . وڤولتير نفسه كان فى مقدوره أن يفحم نجيه ويقنعه بأن شيشرون جدير بكل احترام بغير ما حاجة إلى الإلمام بخبيئة نفسه .

إن الفكرة الخاطئة التى تناقلتها الأجيال عن ڤولتير بفضل حملات النقد اللاذعة المفتعلة التى وجهت إليه إبان حياته وبعد موته ، جعلت منه رجلا كريهاً ممقوتاً ؛ ولكنها مع ذلك لن تمنع من أنه كان عبقرياً فذاً وكاتباً فريداً ؛ وأنه قد ضرب فى فروع الأدب والفلسفة شوطاً بعيداً قل أن يضارعه فيه أحد من مشاهير الكتاب فى عصره والعصور السابقة فى العالم طراً .

وإنه لا بد – قبل التحدث عن حياة هذا الكاتب العظيم ومؤلفاته – من التحدث عن عصر حمل اسمه وظل إلى الآن يحمل طابعه .

عصر فولتير

يختلف القرن الثامن عشر تمام الاختلاف عن سابقه فى جميع أوضاعه وصفاته . فى القرن السابع عشر كانوا يعترفون للعقل بقيمته ويقرون سلطته مع الاحتفاظ للإيمان بدوره الشرعى ومكانته فى توجيه القوة المدركة والتصرف البشرى . وكان الأشراف يؤلفون طبقة حربية غير منظمة ، مناوئة لنظام الحكم ومستبدة . فكانت تعيث فى البلاد فساداً ، وكانت حروبهم الأهلية ومنازعاتهم الشخصية لا تقل فى وحشيتها عن منازعات الأحزاب حتى لقد حالوا دون حكم البلاد حكماً منظماً . وكان رجال النهضة لا يعترفون بتلك القوة التى يعبر عنها باسم الدولة . وظل الأمر على هذا المنوال حتى جاء الكردينال ريشيليو فأصلاهم ناراً حامية ، وكسر شوكتهم ، وأخضعهم ردحاً من الزمن . ثم مات لويس الثالث عشر ولحق به ريشيليو وبدأ عهد الوصاية ، فانفجرت البراكين الخامدة ، وانبعثت الحفلات ، وأعلنت الحرب على الكآبة والاستبداد ، وكان قد اشتهر بهما العهد السابق ، وانتشر السفه وعم الذعر والتشكك ، وزاد

الجشع وحب المال ، وطغت موجة اللعب والحب والترف ، واشتدت حمى المضاربات ، وتحفزت العقول للمرح والدعابة والسخرية ، وعاود الأشراف سيرتهم الأولى ، وتجلت شجاعتهم ، وتجلى جنونهم واستهتارهم بالموت ، وتجاوز هذا الجنون الرجال وامتد إلى النساء ، فبرزن إلى الميدان وناوأن الرجال فكن أشد منهم قسوة وأبعد أنفة وعجباً .

أما من الناحية العلمية والأدبية فقد قام العقل يطالب بالتحرر من أغلال الرقابة والتبعية ، والتقليد القومى والدينى . وتجلى حكم الفرد بأكمل معانيه فى النظريات الأدبية والفلسفية . فالقرن الثامن عشر – على حد تعبير الناقد إميل فاجيه – ليس بالعصر الفرنسى ولا بالعصر المسيحى .

أما أنه ليس فرنسياً فلأن مشاهير كتابه كانوا لا يأبهون للوطنية وعظمة بلادهم فقد كان اهتمامهم بالإنسانية أكثر من اهتمامهم بمواطنيهم . ويرجع سبب ذلك إلى تركيز نظام الحكم الاستبدادى الذى وضعه لويس الرابع عشر بعد توليه زمام الحكم ، وخنق به الحياة السياسية ؛ ثم إلى نمو العلاقات الدولية المتبادلة بين العلماء والكتاب وتوطيدها وانتشارها . وبذلك طغت موجة من الأفكار الإنسانية المشتركة .

وأما أنه ليس مسيحياً فلأن مهاجمة الدين قد استؤنفت فى

نطاق أوسع وعنف بقيادة المترفين من عشاق الملذات وأنصار اللهو والشهوات فى عهد الوصاية ؛ ثم بواسطة الفلاسفة . فكان ڤولتير يهاجم الدين باسم التسامح والتغاضى ، وقام روسو يهاجمه باسم الرحمة والطبيعة .

وقد اشتهر هذا العصر بأنصار المذهب العقلى وهم الذين ينظرون إلى الأمور من طريق العقل ، ورفض الإلهامات والتبليغات التى يقول بها الدين ، بفضل تقدم العلم ؛ كما اشتهر بأنصار الشاعرية وهم الذين أفاضوا فى الشعور والعاطفة والإيمان بالطبيعة والمشاعر التى تنشأ عنها والجمع بين الانفعالات النفسية والفضيلة .

ويمتاز هذا العصر أيضاً بمهاجمة العصر السابق وهدم أساليبه وأوضاعه الفنية مع عجز القائمين بتلك الحملة عن استبدال شىء بما يحاولون هدمه ، والرجوع إلى التقاليد الأدبية التى انتشرت فى عهد لويس الرابع عشر ولكن بصفة ظاهرية مستضألة ؛ ثم الاندفاع مع تيار الفن الجديد القائم على وصف الطبيعة .

فلا غرابة إذا قيل إن هذا العصر هو عصر انحطاط الشعور الأخلاقى والأدبى ولا غرو إذا أدى حتماً إلى انحطاط الروح الأدبى والروح الفلسفى .

على أن بعضهم يريد أن يرى فيه « عصر العقل والأفكار »

ويطلق عليه اسم «العصر العظيم» ويقول الأديب بول ألبير أستاذ النقد «إن هذا العصر هو الذى هيأ فرنسا الحالية وفرنسا المستقبلة فكل ما عمل وكل ما سوف يعمل فيها من أشياء خالدة وليد هذا العصر».

ومع ذلك فهذا العصر وإن كان ضئيلا من الناحية الأدبية ومن الناحية الفلسفية ، فإنه يمتاز من الناحية السياسية بفضل ما ابتدع فيه من الأسس القانونية والاجتماعية مثل «روح الشرائع» لمونتسكيو ، و«العقد الاجتماعى» لجان جاك روسو؛ ثم بفضل ما جاء به بوفون من الأساليب العلمية . ولذلك لا يعد مشاهير كتابه من طبقة الفنانين الذين يحاولون إثارة الإعجاب ، ولكن من طبقة رجال الأعمال والعلماء الذين وقفوا جهودهم على التأثير فى الرأى العام وتهذيبه ونشر العلوم . وهذا ما جعل الرجل يكف عن الاعتقاد بأنه مصدر كل شىء وأخذ ينظر إلى نفسه كحيوان ضئيل شارد فى مكان ضائع من هذا الكون العظيم ، فأضعفت تلك الأفكار قوة الدين ، كما أضعفت مكانة الأشراف وضعضعت أركان الدولة فتقوضت أركان البناء العظيم الذى شيدته فرنسا فى القرن السابع عشر واشتهرت به .

ففى هذا العصر عاش ڤولتير وترعرع وكان فى مقدمة من قوضوا دعائم هذا البناء الشامخ وتناولوه بمعول الهدم .

الرجل

ولد فرانسوا مارى أرويه — الذى أطلق على نفسه فيما بعد اسم ڤولتير واشتهر به — فى الحادى والعشرين من شهر نوفمبر لسنة ١٦٩٤ فى مدينة باريس . وكان أبوه أرويه مسجل عقود على صلة طيبة بكثير من الأشراف الذين يعاملونه ، أمثال سان سيمون ، وريشليو ، وكومارتان دى سانت آنج ، ونينون دى لانكلو ، والأب دى شاتونوف — عراب فرانسوا مارى — والأب جودوان ، والمنشد روشبرون . كان جميع هؤلاء الأشراف وغيرهم من كبار الأدباء ، يترددون على بيت أرويه ، وهكذا تسنى لفولتير أن يتعرف على كورنيل وبوالو ويتردد على المسارح ويشاهد التمثيل منذ طفولته ، وأن يشب فى وسط ثلاث طبقات من الشعب هى طبقة النبلاء والأمراء ، وطبقة الأشراف ، وطبقة رجال الأدب ، وبذلك تكون ضميره المركب الحائر .

وما إن بلغ الثالثة من عمره حتى أخذ عرّابه الأب دى شاتونوف يلقنه «الموسويات» وهى قصيدة فى مدح اللاأدرية ونفى جميع الأديان ، كما علمه نظم القريض وتركيب الشعر

الفرنسى ، ونفث فيه روح الكراهية للمتعصبين واحتقارهم . وفى السابعة من عمره فقد أمه مارجريت دومار ، فانعدمت كل رقابة على تكوينه الأخلاقى واستسلم لهويته ونزعات نفسه ، واندفع فى تيار ما يحيط به من مؤثرات الوسط الذى يعيش فيه . وفى العاشرة من عمره ألحقه أبوه بكلية الآباء اليسوعيين على غير ما اشتهر به من تشيعه لمذهب الجانسنيست . وإنه لمن المتعذر البت فى صحة الفكاهات التى تداولتها الألسنة عن سنى دراسته . ولكن الذى لا شك فيه هو أن هذه الفكاهات تحمل طابع الحقيقة ، وأنها تدل دلالة قاطعة على نضوج قواه المدركة ولما يَزَلْ طفلا إلى جانب نضوج نزعة التطاول وروح التمرد .

وعجز الآباء اليسوعيون ، أو أنهم لم يفلحوا ، فى تقويم المعوج فيه وتحصين هذه النفس بالأخلاق القويمة القوية . ولكنهم لم يصادفوا إطلاقاً مثل هذا النضوج العقلى والذكاء المفرط فى غيره ، ولذلك مالوا إليه وصقلوه على طريقتهم وغذوا مداركه باللغة اللاتينية والبلاغة ، وملأوا مخيلته بدواوين الشعر الحماسى والمآسى التمثيلية ، ولقنوه طرق الحوار وأساليبه ، وعلموه الحكم . فلم يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى كان ينظم القريض بسهولة مدهشة . وبلغت أخباره نينون دى لانكلو ، الغانية التى حافظت على جمالها رغماً من بلوغها الثمانين ، فطلبت من

عرابه أن يقدمه لها ، فألفته خفيف الروح سريع البديهة ، حاضر النكتة ، فأعجبت به إلى حد أنها أوصت له بألفى جنيه لشراء ما يحتاج إليه من الكتب .

وقد ألم ڤولتير بجميع المنازعات الدينية واللاهوتية ، ووقف على جميع الأساليب الكلاسيكية وورثها عن مشاهير كتابها . فهو ليس بالحكيم المحنك ، ولكنه هاو مثقف ، شعر بقوته ، ووثق من نفسه عند إتمام دراسته ثقة كبيرة حتى إنه لم يذعن إلى رغبة أبيه ورفض أن يشغل منصباً فى الدولة وأجابه بقوله « إننى لا أريد غير مهنة الأدب » . لقد كان شاعراً ونفسه تأبى أن يكون غير ذلك . وقد وضع مأساة منظومة وقدم قصيدة فى مسابقة عقدها المجمع العلمى .

وكان أبوه يسلم بأن يشتغل ابنه بالشعر كملهاة من ملاهى المجتمع وليس كمحترف . فحاول أن يرده ويقنعه فلم يفلح وإذ ذاك عقد النية على إبعاده عن باريس ليبعده عن هذا الوسط وينتزع من رأسه تلك الفكرة التى تملكته واستأثرت بنفسه . واتفق أن الماركيز دى شاتونوف عين ممثلا للملك فى بلاط هولندة فى شهر سبتمبر لسنة ١٧١٣ ، فألحقه ضمن حاشيته . وما كاد يستقر به المقام فى مدينة لاهاى حتى علق بحب أولمب دينوابيه ابنة مدام دينوابيه الأفاقة التى كانت تتظاهر باحتراف

الأدب لذر الرماد فى العيون وإخفاء سيرتها وما انطوت عليه نفسها . وكانت أولمب – الشهيرة باسم بامبت الذى أطلقه عليها ڤولتير – على جانب عظيم من الجمال ، تزوجت من الكونت دى ونترفيلد بعد أن هجرها زوجها الأول . ورأت أمها أن ڤولتير الشاب – إذ كان فى التاسعة عشرة من عمره – ليس بالعشيق الذى يلائم ابنتها لأنه لا يملك من حطام الدنيا شيئاً . وأثارت عليه السفارة ففرق بين الحبيبين . وكتب ڤولتير (وكان مازال يعرف باسم أرويه) إلى حبيبته رسائل مفعمة بعبارات الحب والغزل الرقيق وأغراها بالهرب فوافقت وتزيت بثياب الرجال . وانكشف أمرهما وأعادت السفارة تابعها إلى باريس فى ديسمبر من سنة ١٧١٣ .

وفى عام ١٧١٤ نزل إلى ميدان النقد وخاض المعمعة . فاشتهر بنقده اللاذع ، واتهم بنظم مقطوعة من الشعر فى هجاء لويس الرابع عشر فقضى عاماً فى سجن الباستيل . وهناك بدأ فى وضع مؤلفه « لاهنرياد » . وعند ما أفرج عنه أعد العدة لاخراج مسرحيته « أوديب » ومثلت فعلا فى الثامن عشر من شهر نوفمبر لسنة ١٧١٨ ونالت شهرة عظيمة .

وفى عام ١٧١٩ – وكان قد بلغ الخامسة والعشرين – كتب إلى مدام دى مينور : « ثق بأننى شفيت إلى الأبد من المرض

الذى تخشين منه على . أنت تشعريننى بأن الصداقة أثمن من الحب . بل ويخيل إلى أننى لم أخلق للشهوات . إننى أرى أنه لا يوجد فىّ شىء مخجل يدفعنى إلى الحب ، وإننى لأجد مثل هذا الشىء بل أكثر منه فيمن يدفعهن قلبهن إلى حبى ؛ وإنى لذلك أعدل عنه مدى الحياة . »

وحدث له فى شهر ديسمبر سنة ١٧٢٥ ، أن اشتبك فى جدل مع الشفاليه دى روهان أثناء التمثيل فى الكوميدى فرانسيز . فاستدعاه الشفاليه عند باب قصر الدوق دى سولى ، حيث كان مدعوا إلى العشاء ، وأمر خدمه بضربه . فثارت ثورة ڤولتير ولا سيما وأنه رأى أصدقاءه من النبلاء والأشراف وبينهم مضيفه الدوق ينظرون إليه وهو يضرب ويبتسمون وكأنهم فرحون . ودعا الشفاليه إلى مبارزته فرفض واختفى عن الأنظار . وأخيراً تدخل البلاط فى الأمر وأودعت الضحية سجن الباستيل مع صدور الأمر باحترامه ومراعاة جانبه وتكريمه . وكان ذلك فى السابع عشر من شهر أبريل لسنة ١٧٢٦ .

ولم تطل مدة إقامته فى السجن . على أنه لم يغادره إلا بعد أن قطع على نفسه عهداً بالانتقال إلى إنجلترا بلاد الحرية السياسية والحرية الفردية . وفى الثانى من شهر مايو شد رحاله إلى هذه البلاد . وكان اليهودى مدينا قد أفلس وفقد ڤولتير نقوده وشعر

بالضنك واليأس وأقعده المرض . وهنا يقال إن ملك الإنجليز قد مد له يد المعونة مستتراً فى زى شريف إنجليزى كما أضافه التاجر فولكنر فى ويندسورث . وانتهز ڤولتير فرصة إقامته هناك وقرأ فلاسفتها . وفى سنة ١٧٢٧ شاهد جنازة نيوتن ودهش لما رآه من البذخ فى تكريم العبقرية والعلم . وقابل كونجريف وعندما دعاه ڤولتير باسم الشاعر رفض فأجابه : « لو لم تكن إلا شريفاً عادياً لما جئت لأراك » . ثم التقى بكبار كتابها ومن بينهم « سويفت » . وفى غضون ذلك نشرت «رحلات جوليفر» فاهتم ڤولتير بترجمتها إلى اللغة الفرنسية .

ولم يعرف بالضبط متى غادر ڤولتير إنجلترا أو لماذا غادرها . ولكنه عاد إلى فرنسا فى الأشهر الأولى من سنة ١٧٢٩ . واختبأ فى سان جرمان ؛ ومن هناك كتب « إلى الوزير موروباس ليسمح له بجر أغلاله فى باريس » . ووضع مؤلفه « تاريخ شارل الثانى عشر » وفى عام ١٧٣٠ مثلت مسرحيته « بروتس » ثم مسرحية « زائير » عام ١٧٣٢ وهى أعظم انتصار له فى فن التمثيل . وفى عام ١٧٣٤ نشر « الرسائل الفلسفية » وهى طعن صارخ فى الدين أثار ضجة عظيمة حملته على الاختفاء . فالتجأ عند مدام دى شاتليه فى بلدة سيريه فى مقاطعة الشامبانى . وقد علق قلبه بها وظل على حبها زهاء خمسة عشر عاماً . وإن فى

السطور البسيطة المؤثرة التى كتبها لأصدقائه لينبئهم بأنه فقدها لدليلا على عمق تلك العاطفة وقوتها . فجميع العروض المغرية لم تثنه عن علاقته بها ولم تحمله على التخلى عن حبيبته إميلى . فقد دعاه فردريك إلى برلين فتأثر ڤولتير من مجاملة هذا الأمير الذى جاهر بعدائه لمبادئ ماكياڤللى ونادى بحرية التفكير وتحدث عن الإنسانية ومع ذلك فقد أجابه ؛ « إنى لأجد فى مجيئى إلى بلاط سموكم الملكى وتقديم أسمى عبارات احترامى ، فخراً ثميناً وسعادة فائقة . . . ولكن الصداقة التى تربطنى فى عزلتى لاتسمح لى بمغادرتها . لا شك فى أنك تفكر كيوليانوس ، إن الأصدقاء يفضلون على الملوك » . وعندما اعتلى فردريك العرش لم يعدل ڤولتير فى بادئ الأمر عن رأيه وأعلن بأنه يفضل مدام دى شاتليه على كل بلاط فى العالم حتى بلاط بوتسدام . فجرح هذا الرفض فردريك فى شعوره ولم يخف استياءه .

ومرت السنوات . وانفصلت إميلى عن صديقها وخانته . ولكنه مع ذلك ظل على خدمتها والعمل على هنائها . وقد لاحظ لونجشام أن الحادث الذى كان يجب أن يفرق بينهما بطبيعته قد زاد فى التقريب بينهما . وأعجب فلوبرت برقة شعور ڤولتير لأنه ضحى بجاهه وكبريائه فى سبيل ما كانت تشعر به

خليلته من حب لغيره . إن فلوبرت يعتقد أنه لا يوجد بين الرجال كثيرون أمثال ڤولتير أو يحذون حذوه . ولكنه كان هائماً بحب مدام دى شاتليه إلى حد يثير الإعجاب بتلك التضحية وهذا الإخلاص .

وأبدت مدام دى شاتليه رغبتها فى حرق المجلدات الثمانية التى تتضمن رسائلها إلى ڤولتير ورسائله لها . فأجابها إلى طلبها . على أن رسائلها إلى دارجنتال ما زالت باقية وهى تفيض بما يدل على ما كان عليه ڤولتير من رقة الشعور وطيبة القلب . ومثل هذه الشهادة لا تحتمل شكا ولا تكذيباً .

وعند ما ماتت مدام دى شاتليه قبل فولتير أن ينتقل إلى بلاط برلين بدعوة من فردريك الثانى . على أنه لم يلبث طويلا حتى انقلب عليه وهجاه وعاد إلى فرنسا هارباً حيث اختبأ فى مزرعة له بالقرب من جنيف أولا ثم انتقل إلى قصره فى فرنيه حتى سمح له فى العودة إلى باريس عام ١٧٧٨ فدخلها ظافراً .

لقد كان ڤولتير يتمتع بكثير من المواهب الطبيعية الفذة . فذكاؤه مفرط ، وقوته المدركة عجيبة فذة ، ومخيلته حادة ، وشعوره وإن كان سطحياً إلا أنه سريع الانفعال والغضب ، وكان إلى جانب ذلك أنانيا معجباً بنفسه ، كثير الزهو والخيلاء ، محبا للإعلان عن نفسه والتحدث عن أعماله الخيرية . وكان

يحتقر الشعب ويميل بطبيعته إلى الكذب والمين .

إن ما يثير الدهشة ويدعو إلى الإعجاب فى هذا الرجل هو تعدد نواحيه ومظاهره . فهو ليس أحد هؤلاء الأدباء الذين نبغوا فى ناحية واحدة فيمكن تحديد صفاتهم بعبارات وجيزة . وهو ليس بأحد أولاء الأفذاذ الذين يمكن حصرهم فى دائرة محدودة . إن البحث عما يسمونه المواهب الرئيسية يكاد يكون من الأمور المضنية الميئسة ، وأكثر علماء النفس تدقيقاً وتنقيباً ، وأبعدهم شأواً ، حاولوا عبثاً تحليل الأعمال الإنسانية بطريقة علمية ، فما وصل إلينا من آرائهم وتحليلهم ما زال ناقصاً . على أنه يمكن صياغة بعض الأوصاف للتعبير ، بوجه التقريب ، عن الصفات البارزة فى بعض الرجال ؛ وإنه لمن الميسور إيجاد مثل هذا التعبير لو أريد التحدث عن بعض عظماء القرن السابع عشر ومشاهير رجاله أمثاله مونتسكيو وبوفون وروسو . على أن مثل هذا التشبيه لا يمكن تطبيقه على ڤولتير . لقد كان فولتير يلقب دالامبير بلقب « السيد المتعدد الأوضاع » وإن مثل النعت خليق بأن يطلق عليه ، لأنه يمتاز بجميع الغرائز ، وجميع الشهوات ، وجميع مواهب العقل والقوة المدركة ؛ وهو كذلك أهل لجميع الاستحالات . إنه لا بد من الرجوع إلى القرن السادس عشر أو إلى عصور

اليونان القديمة للعثور على رجال تمتعوا بمثل ذلك الإجماع وهم مع ذلك قليلون .

لقد استوعبت روحه جميع أنواع الميول فتأصلت فى نفسه ورسخت فيها . وكان ڤولتير يشعر بقيمة تلك الثروة العظيمة فلم يقف عند حد الاحتفاظ بها . بل كان يصونها ، وينميها ، ثم يستسلم لها بغير ما هوادة ولا تحفظ . فالحياة فى نظره لا تكون كاملة إذا كانت قاصرة على ميل واحد . وهو يقول فى ذلك : « إننا لم نولد لنقرأ أفلاطون ولينبتز ، أو لنقيس المنحنيات ، وننظم الوقائع فى مخيلتنا . لقد ولدنا ولنا قلب يجب أن نملأ فراغه . . . يجب أن نُدخل فى كياننا جميع الأوضاع التى يمكن تصورها ، وأن نفتح أبواب نفوسنا لجميع المعارف والمشاعر . وما دامت هذه الأشياء تدخل القلب بانتظام ، ففيه متسع لها كلها » .

ومما يدعو إلى الحيرة أن هذه الميول المتعددة تتجمع وتسير معاً دون أن يعتورها وهن ولا كلل . وإنه ليخال أن من يحتويها فى نفسه لا يستطيع أن يتمتع بها فى مستوى واحد أو أنه لا يتمتع بها إطلاقاً . فقد جرت العادة على أن العاطفة القوية الثابتة تطغى على غيرها إن لم تقصها كلها . والأشخاص الموهوبون الذين يتمتعون بكثير من المواهب يتخبطون فى

الحياة ولا يتجاوز مستواهم حد المتوسط . أما ڤولتير فإن جميع مواهبه ، على الرغم من تعددها وتباينها ، تحتل مكانة رفيعة . كما أن تعدد ميوله لا يسئ إلى أغراضها ولا يسئ إلى مدتها . ومع ذلك فقد كان يدعى أحياناً أنه لا يتمتع إلا بميل واحد ، وأنه لا يرغب إلا فى مهمة واحدة وشاغل واحد . حتى لقد كتب إلى فورمون : « إننى لا أعرف ولا أريد أن أعرف فى حياتى غير الآداب الجميلة » . ثم لا يلبث أن يندفع مع تيار العمل فيثير مشاعره ، فيبدأ بالاهتمام بنظريات نيوتن . ولا يمضى عام حتى يعلن انه اعتزم أن يهجر قيثارة الشعر إلى عالم الفلسفة . ولا يمر يوم على ذلك حتى يعكف على مراجعة مأساة ، وما هى إلا بضعة أسابيع حتى يكون قد انتهى من نظم رسالة فينشرها .

لم يتردد ڤولتير فى القول بأن اللهو والمرح غاية الحياة ، وأن الله لم يخلقنا فى هذا الكون لغير تلك الغاية . ولكنه يضيف إلى ذلك : « أن العمل نصيب كل كائن بشرى وهو بمثابة شرفه . . . إننى ألاحظ فى كل يوم أنه حياة الرجل فهو يستجمع قوات النفس ويضفى عليها روح الهناءة والغبطة » . وكان ڤولتير يعمل نهاراً وليلا بشهوة منى استيقظ من نومه ، أو ركن إلى مضجعه ، أو كان يأكل ، أو يئن من الألم ،

أو كان يتأهب لمشاهدة التمثيل . لم يعرف الملل يوماً ولم يطرأ عليه الكلل . وليس أدل على ذلك من قول ڤاجنيير ، أمين سره الذى قضى فى خدمته ما يقرب من ربع قرن ، أنه كان يعمل ثمانى عشرة ساعة فى اليوم ، وأنه كان يوقظه ليلا ليملى عليه ما يريد أن يدونه .

ومع ذلك فهذا العمل المتواصل لم يمنع هذا الرجل من التمتع بجميع ملذات العقل وشهوات الجسم . فكان كالنجم يسطع فى الصالونات ، ويتألق فى المنتديات وبلاط الملوك .

وقد قضى فى قصره فى مدينة فرنيه ست سنوات يتقلب على الفراش الوثير والدمقس الناعم وينعم بحياة البذخ والترف وإلى جانبه ابنة أخته وكاتمة سره مدام لويز مينيودنيس . وفى ذات يوم مل هذا العيش المترف فعهد إلى ابنة أخته بمهمة إقراء الضيوف وأوصد بابه ولزم فراشه . كان يقول : « إن الإنسان لا يستطيع أن يتمالك نفسه فى باريس ، فأفكاره تتناثر وتتشتت ، ويضيع وقته ، ويفقد راحته ، ويعجز عن التأمل فى نفسه ؛ وإن المزارع فى الريف خير مقام للرجل » . ولهذا كان « يعبد الريف حتى فى فصل الشتاء » ؛ فكأنه كان يشعر بأنه خلق ليكون « حيواناً أليفاً أو إلهاً من آلهة اليونان » . ولم يلجأ إلى العزلة ، لاعتقاده بأن العمل يكون أوفى وأجدى ، أو لأن الشهوات

تحتدم وتتعمق ، أو لأن المرء فى عزلته يتشبث بمشاعره وعواطفه ، ولكن لابتهاجه بمنظر القرية التى استكشفها من نوافذه ، وميله إلى الاعتقاد بأن اللذة الوحيدة التى لا يشوبها وهم ولا زيف توجد فى الزراعة وغرس الأشجار والنباتات ، ورؤية المزارع الفسيحة وقد أخذت تخضر تربتها وتنبت غرسها الجميل . لقد قال بأنه لم يعمل إلا شيئاً واحداً « معقولا طيلة حياته » وهو زراعة الأرض . لقد كان « مفتوناً بالزراعة » يحب أبقاره ويعنى بنظافتها وراحتها ، ويداعبها ، ولايسيئه منها شيء إلا أنها بطيئة فى حراثة الأرض . وكان يهز بنفسه أشجار الكستناء لتأكل دواجنه من ثمارها المتساقطة ، ويلهو بمشاهدة أرانبه وهى تمسح أنوفها بسيقانها . هذا ما حمله على الكف عن الكتابة — كما يقول — لبضع مئات من العاطلين الذين يقرأون وسرعان ما ينسون لأنهم لا يعقلون . وقد كان يفكر فى أنه لن يعيش إلا ليحرث الأرض بمحراثه الجديد ويستعمل المبذر الذى صنعه بنفسه . كان لا يهمه أن يقطع الحديث فى الأدب أو الشعر ليسمع أخباراً تنقل له عن أبقاره وزراعته ، فتلك كانت أحب إلى نفسه من مسرحياته وقصائده . على أن هذه العوامل ليست سبباً للاعتقاد بأن للتأليف المسرحى قد فترت أو خمدت نارها . فى ذلك العهد بالذات كانت مآسيه المسرحية

أهم شيء لديه فى هذه الدنيا « لأنها تلاحقه بكآبتها وتلازمه نهاراً وليلا » . ولذلك فإن تأليفها لم يفارقه أكثر من الفترة التى عكف فيها على دراسة الطبيعة وعلومها وهى فترة وجيزة لا تكاد تذكر . فما يكاد يغادر مزرعته ويأوى إلى بيته حتى يتنـــاول بالتنقيح مسرحية كان قد انتهى منها بالأمس ويبدأ بإعداد مسرحية للغد . وكان إذا قرأ فصلا من مسرحياته مثّله ، فيستدر العبرات من مستمعيه ويذرفها بنفسه .

قل من كان يتوقع أن يرى ڤولتير مغرماً بالمحراث والمبذر . وقل من كان يفكر فى أنه يعمل على اختراع آلات حربية أو تطبيق القديم منها . والواقع أن هذا الرجل العجيب قد فكر فعلا فى إدخال تحسينات على المركبات الحربية القديمة ، وكان مقتنعاً بأنه سيطبقها على الخطط الحربية المعروفة فى عهده . فوضع نماذج من اختراعه وعرضها على فردريك ملك بروسيا ، ثم حض كاترين إمبراطورة روسيا على استعمالها فى حروبها ضد الترك .

وكان كلما تقدم فى السن ، ضاعف فى عدد مشروعاته . ولم يكتف بما لديه من الأعمال التى كان يديرها بحنكة وخبرة تدعو إلى الدهشة والإعجاب ، فقد أضاف إليها مصنعاً للحرير ومصانع للساعات وأخذ يبحث عن أسواق لتصريف منتجاته .

فطرق أبواب الإستانة وزحف إلى أفريقيا والجزائر وتونس . على أن هذه الأعمال لم تمنعه من دخول مسابقة لنيل جائزة المجمع العلمى وهو فى الثمانين من عمره .

وفى سنى حياته الأخيرة قصر لهوه على لعبتى الورق والشطرنج . وكان مع ذلك يبدى أسفه على وقت يضيعه سدى . فهو يرى أن اللعب بالورق ونقل حجارة الشطرنج ملهاة يرتاح إليها الخاملون ، وكأنه قد نسى أنه فى شبابه كان من كبار المولعين بالميسر وأنه خسر فى ليلة واحدة اثنى عشر ألف فرنك .

وكان حساساً ممعناً فى حساسيته . فكان فى جميع مراحل حياته يبدى شعوراً وثاباً صادقاً لأتفه الأمور . وكان الذين يقربونه يدهشون لتلك الشعلة المتأججة فى نفسه والتى يسطع بريقها فى عينيه . فكيف يمكن أن يكون هذا الرجل بارداً وفى عينيه مثل هذا الوميض . وحدث أن لامه فردريك بأنه يستعمل فى تصرفاته نفس الحدة التى يضعها فى أبطال مسرحياته ، وأنه يستسلم لثورات شهواته ، فسلم ڤولتير بذلك وأجابه بأنه لم يستطع أن يقوم اعوجاج نفسه ويهذبها من « تلك الفكرة اللعينة التى تدفعه إلى الأمام فى جميع تصرفاته وأعماله » .

وحدث له وهو فى الخمسين ، أن زاره الناشر ڤان دورين ، ليقدم له حساباً عن كتابه فردريك ، فأثار هذا الحساب سخطه

واندفع عليه ، وصفعه بغير ما كلمة أو سلام .

فمثل هذه التصرفات المكدرة الغريبة أكسبته شهرة بالجشع والطمع والشر ، فى حين أن الأدلة كثيرة على سخائه ومروءته وهى لا تقبل الشك . فليست المنفعة الدنيئة هى التى كانت تدفعه إلى إطالة منازعاته وقضاياه ، ولكن حب المقاومة والتعنت ورغبة الانتصار والظهور على أعدائه كان النضال يثيره عليهم ويزيده إمعاناً فى ملاحقتهم يوماً إثر يوم .

وحدث له – وكان لم يُثْرِ بعد – أنه احتاج إلى نقود لإسعاف صديق له ، فباع أثاث بيته . وبلغه يوماً – وهو شيخ هرم – أن خادماً ، ممن أحسنوا فى خدمة صديق له وسهروا عليه ، يعانى الشقاء لفقره ، فأسرع إلى مده بالمعونة والمال . . . وقدم عشرة آلاف فرنك إلى الممثل لوكان – وقد سره حسن استعداده ومواهبه التمثيلية – ونصحه ألا ينضم إلى المسرح خوفاً عليه مما يتعرض له الممثلون من المتاعب والمهانة . فتأثر لوكان من هذا العرض إلى حد البكاء بعد أن كان يرى فيه رجلا فظا شريراً . ويقول معاصروه ، ممن لا يتطرق الشك إلى صحة أقوالهم ، أنه كان طيب القلب رقيق الشعور كثير الإحسان وأن من أحسن إليهم كانوا فى أغلب الأحيان يجهلون مصدرها .

وحدث له أيضاً أن سقط عاملان خلال حفلة أقامها

وأصيبا بما عرض حياتهما للخطر . فتأثر من هذا الحادث تأثراً بالغاً حتى لقد أوشك أن يغمى عليه وكتب فى ذلك : « تصور صانعين شقيين يسقطان مضرجين بدمائهما ؛ إن هذا المنظر الكئيب المؤلم قد أفسد على الجميع لذة أجمل يوم فى العالم » . وآلى على نفسه ألا يقيم الحفلات إطلاقاً .

وقرأ فى أحد مؤلفات بوب الشاعر الإنجليزى إن متاع الحياة فى الراحة واليسر والصحة . فصاح : « والصداقة والحب ! .. إن الصداقة هى شهوة القلوب الكبيرة وهى أعظم تعزية فى الحياة كما أنها أولى الفضائل » . لا يوجد شك فى أن هذه العبارة صادرة عن ڤولتير فقد كتبها إلى الماركيز دى ڤوڤنارج وكان لا يستعمل معه العبارات التافهة أو الأساليب المنمقة الكاذبة فقد كان يجله وصلته به كانت لا تقوم على أساس الصداقة الباطلة التى تتولد من الملذات وتزول بزوالها ولكنها كانت قوية جريئة يفخر بها ويقول فيها : « لا توجد سعادة بغير أصدقاء . يجب أن يسمو الإنسان على عوامل النجاح أيا كانت ، حسنة أم سيئة ، ولا بد له أن يكون حساساً بشعور الصداقة . . . إن الأصدقاء القدماء يملكون شعاب القلب » .

وكان لفولتير أصدقاء ؛ فقد كتب إلى شارل دارجنتال المستشار فى برلمان باريس عام ١٧٥٤ : « إنه لمن أحب الأمور

أن يحب بعضنا بعضاً ونحن فى المائة من عمرنا . إننا الآن فى الخمسين ، فما زالت أمامنا صداقة خمسين عاماً أخرى » . وعند ما بلغ الخامسة والسبعين تقريباً كتب له : « أشعر بأن قلبي ما زال فتياً كلما فكرت فيك » . ولقد أصبحت علاقتهما نوعاً من التقديس حتى قال فيهما أحد المعاصرين « إن دارجنتال كان يعيش بنفثات فولتير » .

ومن بين أصدقائه شخص يدعى تييريو . كان فى بادئ أمره مخلصاً وفياً لفولتير . فعهد إليه بتحصيل ما آل إليه من الاشتراكات فى مؤلفه « لاهنرياد » — وهو المؤلف الوحيد الذى أثرى منه فولتير — فغشه وتألب عليه وأنكر جميله وأفرط فى « الكسل اعتماداً على ما كانت تغدقه عليه صداقة فولتير » . ومع ذلك فهذا التصرف لم يمنع فولتير من بقائه على عهده له حتى إنه كان يقول بأنه يفضل أن يكف عن نظم الشعر على أن يقطع صلته به وصداقته له .

ويقول كوندورسيه إن الموت وحده قد وضع حدا لعلاقته بجونفيل وفرومون ، وسيدفيل ، ودالامبير ، وكذلك فاجنيير كاتم سره الذى أخلص له الخدمة فى حياته ودافع عنه بعد موته .

فمثل هذه العلاقات كفيلة بأن تكشف لنا عن صورة لفولتير لا تنطبق إطلاقاً على بعض الصور التى صوّر بها لا لغرض سوى الطعن والتشهير بدافع الحقد والحسد .

سمير الملوك

كان ڤولتير من رجال البلاط . وكان يعترف بذلك كما لو كان يعترف بحقيقة مرة . كان شبيهاً بموليير الذى كاد يسقط وينهار لولا حماية لويس الرابع عشر له . فخاتمة تارتوف مفتعلة ، وثناء الملك عليه كان مصطنعاً ولكنه كان ضروريا . . . فقد جاء على لسان لويس الرابع عشر : « نحن فى حاجة إلى رجال الدولة لندفع بهم عنا رجال الدين . إنى لا أقول ذلك جزافاً ، فقد مر على عهد جعلنى أكوّن أفكاراً قيمة قبل أن أصرح بذلك » .

على أن ڤولتير قد مثل هذا الدور بطريقة عجيبة حتى لقد لاحظ العلامة كوندورسيه أنه لم يحدث أن أثنى ڤولتير على أحد العظماء ثناءه على تورجو بعد سقوطه . وخليق بالذكر أنه عند ما كان يوزع ثناءه على العظماء كان يحتفظ لنفسه باستقلال تام ، وأنه كان ينال منهم أضعاف ما كانوا ينالونه منه .

لقد جرت العادة أن يتقرب رجال الأدب إلى الملوك بالرياء والقول الذلق . أما فى حالة ڤولتير فقد انقلبت الأوضاع بما

يشبه السحر ، فالملوك هم الذين كانوا يتقربون إليه ويخطبون وده .

كان ڤولتير ، منذ فجر حياته ، على اتصال وثيق بكبار عظماء الدولة . وكان يشعر من نفسه بأنه أرفع منهم قدراً . وفى العهد الذى كان يتردد فيه على بلاط الملوك كان يفاخر بأن عظمة النفس وفضائلها هى التى يجب أن تثير الرهبة أكثر من الخوف أو احترام الجسم وملحقاته ، والقوة ، والملك ، والوزارة ، وقيادة الجيش ، فتلك كلها ترهات وأوهام . إن الرجال يولدون ويموتون متساوين ، ولا يميز بينهم غير الفضيلة والذكاء .

لم يجرؤ أحد قبله أن يعامل أرفع رجال الدولة معاملة الند للند ، ويتحدث إليهم بتلك الألفة والمودة ، ويخاطبهم بتلك المساواة والحرية . وقد انتُقد ڤولتير بشدة على طريقة مجاملته للملك لويس الخامس عشر إذ لم يكن فيها من الخضوع ما يتطلب مقامه السامى . ومع ذلك لم يكن ڤولتير أكثر مجاملة لفردريك ملك بروسيا .

لم يفكر ڤولتير عند ما سافر إلى برلين ، أن يخضع لسيد . فقد حدث ذات يوم أن أظهر فردريك استياءه منه فكتب له : « ولكن أنت ، يا مولاى ، هل أنت على حق معى ؟ أنت ملك عظيم ، وعظيم جداً ، لقد فرضت معاهدة درسد ،

ولسوف يكون اسمك عظيماً مع الأجيال . ومع ذلك فإن مجدك وعظمتك وسلطانك لا تخول لك حق إهانة قلب ينبض بحبك . . . لن أسير خطوة لأذهب إلى بلاط رجل عظيم لم يعد يحبني ولا يرسل فى طلبي إلا باعتباره ملكاً » .

ودب بينهما الشقاق ، وكان كل منهما يكتشف عند صاحبه هفوات لا يمكن التغاضى عنها . وبقيا على نفورهما عهداً طويلا . ولكن ما بينهما من روابط المودة والألفة كان وثيقاً لا يسهل قطعه .

ولم ينس ڤولتير مغامرة فرانكفورت ولكنه لم يتألم لهزيمة الملك ويعدها قصاصاً عادلا . ومع ذلك كان يهتم بمريده القديم ، وكان يرجو أن تصلح الخصومة من شأنه ، فهو يعرف الرجل ، ويعرف قيمته ، ويردد ذلك على مسامع من كانوا يستنكرونها أو لا يحسنون تقديرها . كان واثقاً من شعوره بأن هذا الرجل العظيم جدير بأن يقتل نفسه وأن يعيش كفيلسوف ؛ وأنه مهما حدث واثق من نهايته وأن تلك النهاية لن تكون إلا عظيمة . لقد كان شعور المودة القديمة باقياً على الرغم من النزاع القائم بينهما .

وقد حدث ، قبيل موقعة روزباخ ، أن قرر فردريك أن يرضى بالحياة لو انهزم ، وفكر فى الصديق الذى قاطعه وخاصمه

وكتب له « عهداً جريئاً مؤلماً بأنه يفكر وأنه يعيش وأنه سيموت كملك . لا يذكر التاريخ عهداً تبودلت فيه مثل هذه الأفكار الحكيمة السامية بين رجلين عجيبين قربت بينهما ، بعد القطيعة ، نكبة .

ولم يطل عهد الصفاء بينهما ، وعاد كل منهما إلى صمته وجفوته . ومرت ثلاثة أشهر لم يكتب فيها فردريك إلى ڤولتير . وماتت الأميرة ولهلمين فجمع الحزن المشترك بينهما من جديد ، ومن جديد عادا إلى ما كانا عليه من القطيعة . ومرت عدة سنوات دون أن يحدث بينهما جديد .

على أن ذلك لم يمنع فردريك من البقاء على حبه لعبقرية ڤولتير . فقد كان يحبه إلى درجة « العبادة » حتى لقد كتب له فى السابع والعشرين من شهر مارس لسنة ١٧٥٩ : « أنت أسحر المخلوقات التى عرفتها ، وإنك لتستطيع أن تحمل العالم بأسره على حبك متى شئت . فى رأسك من الذكاء واللباقة ما يمكنك من أن تهين كل من يعرفك وتستحق عفوهم ورحمتهم » .

فأجابه ڤولتير : « أنت تنقص فى سعادتى . فسأموت دون أن أراك . أنت لا تهتم لذلك ، وإننى من جانبى أحاول ألا أهتم به . . . لم أستطع أن أعيش بدونك ولا معك . إنى لا أتكلم إلى الملك ولكن إلى الذى سحرنى ، والذى أحببته ، والذى ما زلت غاضباً عليه » .

وكتب له فردريك على هامش خطابه فى العاشر من شهر يونيه لسنة ١٧٥٩ : « تعلم ، وأنت فى هذه السن ، بأى أسلوب يجب عليك أن تراسلنى . توجد عندك سفاهات لا تحتمل . . . عسى السماء التى حبتك بهذا العقل الراجح أن تهبك مقداراً من الحكم مناسباً . . . ولئن تم لك ذلك لكنت أول رجل فى هذا الجيل وربما كنت أول رجل حملته الأرض على ظهرها » .

إن « مذكرات » ڤولتير لا تنقض رسائله ولا تتعارض معها . فقد كتبها ڤولتير إرضاء لنفسه لاحباً بنا . وكان يرى من السخف أن يكتب الإنسان تاريخ حياته بنفسه ولذلك لم ينشرها وأبى أن يطلع أحداً عليها ؛ وذهب إلى أبعد من ذلك فحرق الأصول ، فلم تعرف إلا بعد موته بفضل نسخة سرقت منه .

ويأبى حقد الناس عليه وضغينتهم إلا أن يتناولوه بألسنة النقد الجارح المؤلم فيذيعوا أنه دوّنها حباً للانتقام وأنه إذا كان قد تظاهر بإخفائها فإثارة للفضول . لقد دوّن فى تلك المذكرات كل صغيرة وكبيرة مما يعرفه عن فردريك ، وفيها من السطور والعبارات ما كان يجدر به ألا يكتبها . ومع ذلك فالصورة التى رسمها عن هذا الملك الكبير جديرة بالرسام بقدر ما هى جديرة بنموذجه . لقد وصف فردريك وصفاً دقيقاً ، فجاء على ذكر رذائله وألحقها بفضائله . وهكذا كانت رذائل الرجل تتلاشى

وتختفى أمام مجد الأمير وعظمته . فإذا كان ڤولتير قد حمل « الأغلال » ورضى بأن يكون «عبداً» لملك ، فليس إلا لأنه كان يقدم حبه لهذا الملك على كل شىء . ولقد كان فى الواقع يحبه على الرغم مما قاله عنه فى ساعات غضبه .

لن يستطيع إنسان أن يقول عن ڤولتير أنه كان يضم بين جنبيه نفساً خبيثة نزاعة إلى الرياء والمداهنة ، أو أنه كان متشبعاً بأخلاق رجال البلاط فى عصره وما طبعوا عليه من دسّ ودهاء ، فهو لم يعرف كيف يستميل لويس الخامس عشر ولا كيف يحافظ على صداقة فردريك . لقد سئم العيش فى ظل الملوك فبحث عن عزلة عند سفح الجورا عساه أن يجد فيها ما لا يهبه الملوك بيد ويسلبونه بالثانية وهما الراحة والحرية . ولقد فضّل على قصرى ڤرساى وبوتسدام جمهورية يستطيع أن يخاطب رؤسائها بغير ما كلفة فيقول لهم : تعالوا غداً لتناول الطعام عندى .

الكاتب ومتناقضاته

كان ڤولتير يعتبر فن الكتابة فى مقدمة الفنون وكان يلخص هذا الفن فى تلك العبارة : « التعبير عما فى الفكر تعبيراً دقيقاً » . واتخذ ڤولتير تلك العبارة رمزاً لحياته الأدبية ووضعها نصب عينه ولم يحد عنها قيد أنملة . ولذلك فإنه لم يكتب كمحترف ولا فى سبيل متعة ذاتية ، ولا سعياً وراء المجد ، ولكن ليبسط روحه على الطرس ، وفى سبيل العمل وحده . فإذا طرأ موضوع على مخيلته وأخذ عليه مشاعره فإنه لا يدخر وسعاً ولا يألو جهداً فى سبيل تحقيقه كاملا غير منقوص ، وإلا تجاوز عنه وظل صامتاً . إن ما يريده ويسعى إليه هو أن يتكلم القلب أو أن يسكت الكاتب . ولقد كان يحرم كتابة أى شىء ، إن نظماً وإن نثراً ، ولو رقعة بسيطة ، ما لم يكن الكاتب حاد الذهن وأهلا لأن يكتب . أما من يكتب لمجرد الاعتقاد بأن الواجب يدعوه إلى ذلك فإن ڤولتير كان ينبذه ويناوئه ويمطر عليه اللعنات . ويقول الناقد جيراردان المعاصر له : « إن ما أحبه فى ڤولتير هو أنه إذا مشى الأديب عنده فإنه لن يمشى وحده ؛

فخلف الكاتب يوجد الرجل » . ولكن ڤولتير يخطئه فى هذا الاعتبار بقوله : « لا يجب أن يسير الرجل فى المؤخرة بل يجب أن يسير فى المقدمة » . والواقع أن الرجل عند ڤولتير كان يسير فى المقدمة أو بعبارة أصح لا يوجد عنده رجل وكاتب ولكن يوجد الرجل الذى يجمع بين الصفتين .

هذه القاعدة جميلة ، وضعها فولتير وكأنه قد وضعها لنفسه ؛ لأنه كان لا يخشى ارتباكاً أو حيرة ، فقد كان على ثقة بأن حدة ذهنه لن تخونه لحظة وأن شيطان العمل لن يفارقه أبداً .

ولقد طالما فاخروا بعقل ڤولتير وأشادوا به ومجدوه . على أن العلماء أطلقوا على كلمة العقل كثيراً من المعانى . ولكن مهما تعددت المعانى وتباينت فيها الآراء ، فإنها لا تنطبق على ڤولتير للتدليل على عظمته ورفعة مكانته ، فأيا كان المعنى الذى يقصد بهذه الكلمة فإنه — فى نظر ڤولتير — يعبر عن شىء قليل القيمة ، غير جدير بالاعتبار ، مبهم ، وضار بالذوق السليم . ويقول فى ذلك : « لن أتردد فى إتلاف مؤلفى لو تأكدت من أنه سينظر إليه كعمل من أعمال العقل . . . إن العقل يسعى وراء الأفكار ، والأحكام ، والاستعارات ، والمجادلات البارعة ، والتأملات ، وهذا ما يحط من مكانة الأدب والبيان » .

ولذلك لا بد من التحدث عن قواه المدركة وبصيرته . فالذى يجعل فولتير فريداً فى ذاته ، هى طريقته فى عرض الأشياء بعبارة طبيعية ، بسيطة ، سريعة ، واضحة ؛ فهو على حد قول سانت بوف : « عند ما يبدأ فى التحدث عن موضوع فإنه يوفيه حقه أكثر من سواه وبمجهود أقل » . وتلك الطريقة تتفق مع مراعاته الدقة فى تطبيق قاعدته وهى : « أن يقول الإنسان ما يفكر فيه ، ولا شىء أكثر مما يفكر فيه ، وتماماً كما يفكر فيه » .

إنه لا يتجاوز فى كتابته ما يستلزمه التعبير عن فكرته أو الشعور الذى يخالجه : « لماذا أكتب مجلداً ما دامت تكفى بضع صفحات ؟ فليس ما يوجب تعدد الكائنات وتوزيعها » .

لقد أكثروا الكتابة فى هذا العصر حتى أصبحت مهزلة مخجلة وهو يقول فى ذلك : « مجلدان فى مقابل صفحتين ، هذا كثير ؛ فلا يحتاج الأمر لأكثر من سطرين مقابل مجلدين . بل يحسن عدم كتابتهما . . . إن المدارس تمنح جوائز لمن يفيض فى التحرير ؛ وهذا يعلم الطالب طرق الإبهام . فالذى يجدر أن يكافأ هو من يضغط فكرته لأنه يعرف كيف يجيد الكتابة بقوة . وبدلا من أن تسمى الإفاضة ناحية جميلة من نواحى البيان يجب أن تسمى عيباً . فعندما يقول الإنسان

كل ما يجب فإنه لا يفيض فى القول ولا يفخم . فإذا فخم فإنه يكون قد أكثر القول » .

وقد ازداد ميله للإيجاز ، ورسخ فى نفسه ، لاعتقاده بأن الإنجليز كانوا يستطيعون أن ينيروا الجنس البشرى لو لم يوزعوا الحقيقة فى كتب متعددة تثير السأم والضجر . فما يرفع من قدر الشاعر راسين ويعلى من مكانته الأدبية هو أنه كان لا يقول أكثر مما يجب فى حين أن غيره كانوا يقولون كل ما يستطيعون .

تلك النزاهة هى التى منعت فولتير من الإطالة وهى كذلك جعلته يتجنب التنميق والتصنع . فهو يفيض فى الشعور والتأثير لا فى العبارات والألفاظ . فلا توجد كلمة لا تتفق مع فكرته ، أو استعملها فى غير ما يشرح هذه الفكرة ويزيدها إيضاحاً بأوفر قسط من الإخلاص والأمانة .

إنه ينصح الكاتب بأن يكون بسيطاً ، وأن ينسج خيوط مؤلفه بطريقة طبيعية واضحة ، وأن يطرق الموضوع مباشرة وألا يقول إلا ما هو ضرورى .

ولذلك فإنه استطاع – بفضل هذا الإخلاص وتلك النزاهة وبفضل احتقاره للبلاغة والبيان – خلال ستين عاماً ، أن يتجدد بغير انقطاع ، وأن يتجنب استعمال ما هو ممل أو متعب ، ولو تناول نفس الموضوع مراراً ، كما استطاع ألا

يتقيد بأية طريقة ، وأن يتحاشى الصنعة والتقليد . لقد أخذ على فولتير أنه أجرى كثيراً من التعديل والتبديل والإضافة فى بعض مؤلفاته الشهيرة ، والواقع أن هذا التعديل لم يكن أكثر من حذف بعض النصوص أو إضافة نصوص أخرى . إن فولتير لا يقضى الساعات الطوال – كما كان يفعل روسو – لإعداد الكلمات ، ولا يقيد نفسه كثيراً بقواعد اللغة . فتكرار الألفاظ يلاحظ عنده أكثر مما يلاحظ عند غيره من كبار الكتاب . وهو لا يفرط فى استعمال حروف العطف ولا الضمائر كما يفعل بوسويه . وما يوجد فى مؤلفاته من الأخطاء اللغوية ليس كله من وضعه وكثير منها يرجع إلى من كان يملى عليهم أو ناسخى كتبه أو ناشريها .

إنه فنان ، بل فنان عظيم . فهناك فى الواقع طرق كثيرة ليكون الإنسان فناناً . إن الجمال عند مشاهير الكتاب يجذب الأنظار . فهو يبدو كتلك الأشجار المنعزلة التى تنبت متناثرة فى وسط السهوب القاحلة أو الصخور ، فترى من كل جانب ، وتجلب الأنظار بخطها المتهادى المتعرج عند الأفق . أما فى وسط الخمائل الكثيفة ، حيث تتعانق الأشجار الباسقة وتشتبك ذراها ببعضها بحيث تؤلف عقوداً متتابعة مستمرة ، فإن أشجار السنديان العتيدة لاتكاد تبدو ولاتكاد تنكشف إلا للعيون المنقبة

التي تبحث عنها وتدركها . كذلك الألفاظ والكلمات ؛ فإن القارئ يمر بها دون أن يلاحظ معناها وقيمتها ، فالكلمة التي تعد عند راسين تافهة لا معنى لها ، قد تصبح عند كورنيل بعيدة المدى دقيقة المعنى . ففولتير ، من هذه الناحية ، من أسرة راسين . فما يرد فى مؤلفاته من المناظر والأوصاف والمواقف الجميلة المدهشة لا تتجلى للأنظار بارزة ولا تسترعى تفكيرنا ، ولذلك لا نعنى بفصلها عما يحيط بها ؛ فهى فى مكانها بحيث لا يمكن إقصاؤها عنه . وإنه ليكفى أن يقرأ الإنسان مؤلفات ڤولتير العديدة بقليل من الإمعان والدقة حتى يقف على الكثير من تلك الغرر ويتبين قيمتها وعظمتها فى جميع نواحى الأدب والبلاغة ، ورسوخها فيها رسوخ السنديانة فى جوف الأرض تشتد مع الزمن ولا تزعزعها أعاصير النقاد والمغرضين .

• • •

يقول معاصرو ڤولتير ومن جاء بعدهم من الأدباء والنقاد إنه كثير المتناقضات . وهذا الرأى – وإن كان فى الظاهر لا يخلو من الصحة – إلا أنه فى الواقع لا ينطبق عليه بصفة مطلقة . ويقول أبوه أن ابنه كان لا يتزحزح عن رأيه إطلاقاً ؛ والواقع أنه كان غير ذلك . كان ڤولتير يأبى أن يسير على غرار غيره أو يرضى بالبقاء محصوراً فى دائرة ، أو يتقيد بقول .

ويقول إن الإنسان إذا أراد أن يتمسك برأى ولا يعدل عنه ، وجب عليه أن يكون قليل اليقظة وضعيف الحساسية ؛ أو بمعنى أصح أقل حياة . ولذلك لا يعرف ڤولتير إلا وسيلة واحدة لعدم التحول عن الرأى ، هى عدم إبداء أى رأى أو الإجابة على أى سؤال . ولقد طالما حاول فى وسط سديم السخافات الذى كان يتخبط فيه العالم ، أن يعصم نفسه عن المتناقضات ولكنه لم يفلح خصوصاً فى حديثه عن الله ، وعن الخليقة ، وعن حرية التعبير، وإبداء الرأى فيما وراء الموت ، وبعض المسائل الغامضة الأخرى . ولذلك اعتبر من المتشككين فى حين أنه ليس منهم ولا يمتّ إليهم بأية صلة ، لأن التشكك يدفع صاحبه إلى إذلال العقل البشرى « والإساءة إليه بأسلحته » ما لم يتعمد الخلود إلى « فراش الجهل وينبذ الفضول » . ولم يك ڤولتير ثائراً على العقل ولا ميالا إلى النوم على وسادة الجهل . وإذا كان ، على غرار شيشيرون ، يشك فى كثير من الأشياء ، فإنه لا يشك فيها كلها . والدليل على ذلك أنهم إذا حاولوا أن يقيموا له الأدلة على أوهام الحواس واستحالة الأنية ، وعدم صحة وجود العالم الخارجى الذى يؤمن به ، فإنه كان يفكر أولا فيما يقال ، وعند ما يعجز عن الوصول إلى حل فإنه يقول : « لا أستطيع عمل شىء . . . ولنفرض أكثر مما يفرضه هؤلاء

السادة : إنهم يدعون أنه لا يمكن التدليل على وجود أجسام ، فما هى نتيجة هذا ؟ هل عسانا نتصرف فى حياتنا بغير ما نعمله الآن ؟ وهل تختلف أفكارنا فى الأشياء عما هى عليه الآن ؟ كل ما يمكن عمله هو استبدال كلمة واحدة . فعندما نتكلم عن موقعة حربية نقول : « يخال أن عشرة آلاف رجل قد قتلوا ، ويخال أن الضابط الفلانى قد كسرت ساقه ويخال أن جراحاً قد قطعها له » . وكذلك عند ما نشعر بالجوع نقول : يخال أننا فى حاجة إلى ما يشبه فى ظاهره قطعة الخبز لنتظاهر بالهضم » .

ورأى ڤولتير أنه من العبث التعمق فى رأى كوبرنيك الفلكى فى كتابه « رسالة فى ثورات العوالم السماوية . » وهو فى هذا ينحو نحو باسكال ومونتنى .

وحدث أن فردريك تحدث بشىء من الطيش عما يراه ڤولتير حقيقة هندسية فانبرى له ڤولتير وأرسل يعنفه بطريقة قاسية صارمة وجاهر بأنه لا توجد غير قبعة حمار لتوضع على رأس ذلك العالم الذى يتوهم أنه يعرف المادة ، وما هو أفظع ، معرفة العقل . ومع ذلك كله فهناك من الأدلة التى لا تحتمل المناقشة على أن ڤولتير يشك فى الطريقة التى يقال بها للتنبؤ عن كسوف الشمس بقدر ما كان يشك فى صحة ما كان يتمتع به فى مدينة

سيريه خصوصاً منذ أن بدأ يراسل فردريك وما أغدقه عليه من نعم . وغير ذلك من المتناقضات . فلو أنه كان من السهل أن يقوده عقله إلى التشكك لحال مزاجه دون ذلك وأنقذه .

ولكن إذا نظر إلى جميع مؤلفاته باعتبار أنها وحدة عظيمة فإن متناقضاته فيها تكون فى ظاهرها قليلة الأهمية . فعندما يشتبك الإنسان فى جدل مع عدة أشخاص يناوئونه العداء ويتربصون لكل كلمة تصدر عنه ، فإنه يقذفهم بالألفاظ والعبارات بغير تفكير ولا تقدير للنتائج . وعند ما يكتب ثلاثين خطاباً فى اليوم فإنه لا يجد وقتاً لمراجعتها . وكان ڤولتير لا يتصور أن كل كلمة يلقيها كانت تدون ليحاسب عليها . ليس شك فى أن من كانوا تحت مراقبة كهذه ، لا بد أن يفقدوا سمعتهم وشهرتهم مهما عظمت مكانتهم وتعالت شهرتهم . لقد كان ڤولتير يفكر فيما كان يقوله بإخلاص ولكن فى الوقت الذى كان يتكلم فقط ؛ ولو أنه كان على علم بأنه سوف يحاسب عليه فليس شك فى أنه كان يحلى هذا القول وينمقه .

لقد قال : « يجب أن يهزأ الإنسان بكل شىء ويترك العالم يسير كما يسير . ولا يجب التفكير إلا فى العيش مع ذاته ومع إخوانه . سينتهى بى الأمر إلى أن أكف عن التفكير بصوت

مرتفع وهذا من أحكم الأمور » . ولكنه كان لا يعمل بما كان يقرره .

وحدث أنه كان يتتبع سير الحرب ، حرب السنوات السبع ، « بفضول زائد » فقال : « يا لله ، شد ما أنا فى شغف بهذه المشاجرة . إنى ليسوءنى أن أكون بعيداً عنها . فتفضل على بموافاتى بأخبارها » . وإذا كان بعد بضعة أسابيع قد كتب : « لا شك فى أن نظام أوربا سيتغير ولكن ماذا يهمنا ! » فليس لأن الفضول والرجاء عنده قد تحولا إلى قلة اكتراث ، ولكن معنى هذا أنه ، فى اللحظة التى كتب فيها ذلك ، كان يعد فى ذهنه مأساة ، أو قصية ، أو أى عمل آخر كان — على جارى عادته — يوليه كل اهتمامه وتفكيره . ولئن رجعنا إلى مجموعة رسائله ، خلال سبع سنوات ، لتبين لنا كيف كان يعيب على الباريسيين طيشهم ، وأن اهتمامه بحديقته ومزارعه لم يكن أقل من اهتمامه بالشئون العامة .

ولو لوحظ ما كتبه عن الراعى البروتستانتى روشيت إذ قال : « فليشنق هذا الواعظ أو فليعطى كنيسة ، فهذا لا يهم دولة فرنسا كثيراً » كان يجب أن يلاحظ أن هذا القول الطائش قد صدر عنه لأنه موجه إلى ريشليو وأن مثل هذه الطريقة فى التعبير خير ما يمكن استعماله للأخذ برأيه . ومع ذلك يتبين

من نفس الخطاب أنه كان يعمل على إنقاذ روشيت إذ كان يشير إلى أن القوانين الصادرة ضد البروتستانت وإن كانت تترك للقضاة حق محاكمتهم فإن المصلحة تقضى بعدم تنفيذ هذه الأحكام ، وأن ريشليو إذا حصل على العفو عن الراعى فإنه يصبح معبوداً لشيعته .

وفى حادث كالاس — الذى اتهم بقتل ابنه ظلماً وحكم عليه ونفذ فيه الحكم — تظاهر ڤولتير بعدم الاهتمام ووصفه بأنه شنيع ولم يخف ذعره من الإقدام على تلك المغامرة . ولكنه لم يلبث أن يتحول عن موقفه فجأة ويقول : « أحب إلى من هذا أن أعيد تمثيل كاسندر وأن أحرث مزارعى ، فما أحسن الخطة التى نهجتها ! » فيخال لمن يسمعه أنه سوف يسر من الحكم الذى سيصدره البرلمان ، وأنه يجد أن مسألة سيرڤن لا تساوى مسألة كالاس « إذ لا يوجد مع الأسف شخص مضروب » . فلا يتمالك الإنسان نفسه من القول بأنه رجل وحشى . وهو مع ذلك قد انتصر فى مسألة كالاس وأظهر للملأ براءته فعوضت أسرته .

وفى أوائل سنة ١٧٦٢ ادعى أنه كتب « أولمبية » وأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى كتابة مأساة مسرحية أكثر من رغبته فى وضع مذكرات عن أسرار القساوسة وتكفيرهم وواجباتهم .

فاتخذ قوله حجه عليه ، ولم يعد الجمهور يرى فى مسرحياته إلا طعناً فى الدين ودعاية فلسفية . على أنه كتب إلى دارجنتال – ولما تمض أربعة شهور – : « كنا نقرأ ميروب . . . وكنت أقول : هذا شىء مهم . فهلا استطعت أن تكتب مسرحية من هذا النوع تكون فى الواقع فاجعة مؤلمة ؟ وإذ ذاك تملكنى الشيطان . . . الشيطان ! كلا ، بل ملك النور . . . وتملكنى الحماس . . . » واستمر فى شرح التأثير الذى سيحدثه مؤلفه الجديد لو أجيد تمثيله ، وأتقن الممثل أداء ذلك النشيج المكبوت ، وتلك العبرات غير المتعمدة ، وذلك الصمت الرهيب ، والألم الميئس ، والخمول فى المشاعر والحواس ، وتلك الوداعة والرقة ، وذلك الغضب الذى يملك نفس السامعين . وكتب كذلك بشأن أولمبى : « لقد تملكنى الحنق وحملنى الموضوع على أجنحة الريح » . ولم يذكر كلمة يشتم منها رائحة الدعاية أو الجدل . وبعد قليل هدأت ثورته وحكم على مؤلفه بقسوة ، وفكر فى كتابة مذكراته المشهورة . وتحمس لها بدورها . ولم تكن المسرحية إلا وسيلة لنشرها : وإذن فشيطان المسرح وحده هو الذى أملاها عليه .

وورد عنه فى المعجم الفلسفى : « من أكبر دواعى الأسف أنه لا يوجد سحرة ولا منجمون ولا جن . فلا يمكن أن يتصور

الإنسان الثروة التى توجد فى مثل هذه الموارد . . . » . ولا يلبث أن ينهم يوماً بتشيعه لمذهب المعارضين لتقدم الحضارة لأنه امتدح العصور القديمة ، وتغنى بالجن والأرواح .

وجاء كذلك فى المعجم الفلسفى : « إن المتناقضات التى يمثلون بها الرجال فى التاريخ ليست متناقضات بل صوراً مبينة . فى كل يوم يهجون ويمتدحون الإسكندر قاتل كليتوس ومع ذلك فهو مؤسس مدينة الإسكندرية ؛ وقيصر العربيد الذى جمع الكنوز ليستعبد وطنه ومع ذلك فإن حلمه يتساوى مع كفاءته ، وعقله الراجح مع شجاعته . . . لقد سمعت أحياناً أحد القضاة يقول : « هذا الرجل لا يقرر شيئاً إلا بتأثير مزاجه ، فبالأمس كان يجد لبوسان رساماً ماهراً ، وهو اليوم يجده متوسطاً . وذلك لأن لبوسان قد استحق كثيراً من المدح والنقد » .

مثل هذه المتناقضات توجد بكثرة عنده ولكنها ليست سوى عبارات طائشة تصدر عنه فى ساعات متباينة متباعدة حتى لا يجب الأخذ بها .

الناقد والمؤرخ

فكر ڤولتير بعض الوقت فى الفن وقواعده ، وخرج من تفكيره مقتنعاً ببطلان المسائل النظرية فعدل عن وضع رسالته فى الجمال ، وعمل برأى موليير الذى يقول بالاستسلام لما نحس به من الأشياء بدون تعليل الأسباب وتجنب الاندفاع فى الحديث أو النقاش فيما يستفز شعورنا . وكان يرفض أن يشترك فى الإعجاب المفتعل الذى يستفز الصيحات المصطنعة ويحول دون الاعتراف بالسأم والملل ؛ كما كان يرفض الحكم على الأخطاء التى تقع من جراء استعمال المحسنات اللفظية التى تسحر الأسماع وتخلب اللب .

عند ما يسدد الإنسان نظره إلى الأفق ويرى مياه البحر ترتفع أشبه بالجدار المنيع ، فإنه يحصر نظره فى دائرة ضيقة ولا يكف عن القول بأن هذا المنظر يثير فى النفس شعور* « اللانهائى » ولكن فولتير ، لم يأخذ بهذه النظرية كما أنه لم يتشبث برأى . فكان لا يحكم على عمل بمجرد النظر إلى توقيع صاحبه ولا يتحمس للأسماء . على أن إعجابه وحماسه دفعاه مرة واحدة

إلى كبت شعوره والتجاوز عن تحفظه . كان ذلك عند ما انتهى من الإشادة فى مدح شيشيرون فى نبذة جميلة ووصل إلى نقط الضعف عند هذا الرجل العظيم . فقد وقفه احترامه وأبت عليه نفسه أن يكتب عنها شيئاً قد يشبه الهجو .

ولقد كان إعجابه براسين عظيماً فطالما تذوق كتاباته وامتدحه ، ودافع عنه بحرارة حتى لقد قال فيه : « راسين المبدع الذى لم يعجب به الناس بما فيه الكفاية » . ومع ذلك فإن راسين لم ينج من نقده . فقد لاحظ ڤولتير بعض الأخطاء الطفيفة فى مسرحياته : « إستر » و « متريدات » و « برنيس » و « برتيانيكوس » و « أتالى » فعلق عليها بغير رعاية .

وكتب بنفس الإخلاص « تعليقاته عن كورنيل » فلم ينج واحد من مؤلفاته المنثورة من الطعن . حتى لقد اتهم بأنه يحاول النَّيل من مكانة كورنيل بعامل الغيرة ودافع المنفعة الدنيئة . وعبثاً حاول ڤولتير وأنصاره أمثال جريم وكوندورسيه أن يقنعوا الجمهور ليعدل عن رأيه فلم يفلحوا . وظلت تلك الفكرة متسلطة عليه حتى نهاية القرن التاسع عشر . ومع ذلك فإن ڤولتير لم يفكر فى كتابة « التعليقات» إلا للإشادة بمجد « أب المأساة المسرحية » وكذلك للإشادة بمجد فرنسا . فقد قال فى نهاية « الرسائل الفلسفية » : « أيه خدمة يؤديها المجمع اللغوى للآداب ،

واللغة ، والأمة ، أجل من عنايته بطبع مشاهير مؤلفى عصر لويس الرابع عشر بعد تطهير مؤلفاتهم من الأخطاء التى وردت فيها . إن كورنيل وموليير لا يخلوان منها وكذلك لافونتين . إن أوربا التى تقرأ هؤلاء المؤلفين ستتعلم لغتنا عن طريقهم وهى مطمئنة . إن الكتب الفرنسية الطيبة التى طبعت على نفقة الملك ستصبح أثراً وطنياً مجيداً . لقد بلغ إلى علمى أن المسيو دسبرثو قد تقدم بهذا العرض . . . ولكن هذه الفكرة آلت إلى مثل ما آل إليه الكثير من المشروعات الصالحة فلم تعتمد وأهملت » .

وقفزت تلك الفكرة من جديد عام ١٧٦١ . وعلم ڤولتير أن المجمع اللغوى سيتولى نشر مختارات مشاهير الكتاب « الكلاسيك » مع التعليق على اللغة والذوق . فتمنى لو أسندت إليه مهمة الكتابة عن لافونتين لأنه كان شديد الإعجاب به وطالما تحدث عنه فى « المعجم الفلسفى » . وكان يحترم كورنيل العظيم ويقول بأنه أستاذه وأنه يجله إجلال اليونان لهوميروس ، وكان يحبه أكثر من أى شىء آخر ، وقد دفعه هذا الحب إلى أنه كان يحث الناس على حبه . وكان يشيد به ويقول بأنه من الخلاقين الذين وجد المجد لهم خصيصاً . وعبقريته كافية لتحول تيار العقل وتسمو به فى أمة بأسرها .

وكان وهو يعمل على الإطناب والإشادة « بزعيمه » يسعى إلى تحطيم أنانية الإنجليز « الذين يعتقدون بأنهم سادة » « التراجيدى » كما هم سادة البحار ، فيضعون شكسبير فى مستوى أرفع من كورنيل ! .

على أن فولتير كان يعلم أنه — إذا ما شرع فى الكتابة عن كورنيل — فسوف يصطدم بكثير من الأخطاء . ولكنه لم يكن يتوقع أنها بمثل تلك الخطورة حتى لقد آلمته . ولكنه كذلك رأى من واجبه أن يكتب عنها كلها بغير تحفظ . فأخطاء عظماء السلف تعلم النشء والخلف . وأبت عليه نفسه أن يكون فى تعليقه من عبدة الأصنام كما يفعل غيره . وبدأ يقرأ مأساة « دون سانش » حتى إذا ما أدرك الفصل الثانى توقف وقال : « ماذا عسانى أن أقول فى مثل هذا الخلط ؟ إن السكوت أجدر وأولى من الاستمرار فى تدوين ملاحظات غير مجدية عن مسرحية لا يمكن قراءتها . إنها لا تخلو من مقطوعات جميلة سوف نقرأها بشغف ولذة خصوصاً ونحن نتألم بشدة لاضطرارنا إلى النقد بلا انقطاع . . . كيف أمكن أن يُفضل على راسين ثرثار سيئ الذوق مثل هذا ! ما أصدق بوالو فى عدم اهتمامه بمحسناته البديعية . . . إن الإنسان لا يناقض نفسه إذا ماوقف مشدوهاً حيال المشاهد الجميلة بين هوراس وكورياس

وبين السيد وشيمين ، ثم يجد نفسه بعد ذلك — والألم يمزق نياط قلبه — أمام خمس عشرة مأساة لا نفع فيها ولا جدوى » .

وعلى الرغم من هذا النقد اللاذع المر الذى أثار عليه الرأى العام ، فإن ڤولتير عند ما شرع فى إعداد قائمة بمشاهير رجال القرن السابع عشر ، وضع على رأسها اسم من نقده بتلك الجرأة وهو يقول : « سأعتبر نفسى رجلا آبدا ، وعقلى زائف سافل ... إذا أنا استطعت أن أنسى تلك القوة العظيمة التى تنبعث من مشاهد كورنيل الخالدة » .

وكان ڤولتير أول من نقل إلى فرنسا اسم شكسبير ، وأشاد بعبقريته . وليس أدل على قوة فولتير المدركة ، وحسن ذوقه ، وبعد نظرته ، وحرية رأيه وتفكيره ، من فهم بعض مشاهد شكسبير ولما يتهيأ إلى قراءته . لقد كان يستشهد بفقرات من « يوليوس قيصر » مليئة بالعظمة والروعة والجمال ؛ ويقول بأنه يفضل ما فيها من مناظر مروعة على ما فى غيرها من مشاهد الغرام والجدل السياسى البارد . ويقول عن مسرحية هملت : « يتوهم البعض أن هملت ثمرة مخيلة وحشية ثملة . ولكنها — مع ما فيها من شذوذ غليظ — لا تخلو من عبارات جديرة بأعظم العباقرة . يخال أن الطبيعة قد عنيت بأن تجمع فى

رأس شكسبير كل ما يمكن أن يرد على خاطر الإنسان من عظمة وقوة . . . عند ما بدأت أتعلم الإنجليزية ، كنت لا أستطيع أن أدرك كيف يتسنى لدولة راقية متحضرة أن تعجب بمؤلف غريب الأطوار مثله . وعند ما تعمقت فى دراسة تلك اللغة ، أيقنت أن الإنجليز على حق فيما كانوا يمجدون » . . . وتلك هى ميزة العبقرية ؛ إنها تشرد وتضل ، ولكنها تترك خلفها من آثار العقل والدقة ما لا يمكن أن يضارع .

واعتبر الفرنسيون تكريمه لشكسبير – فى بادئ الأمر – جريمة ، ورموه بالخيانة العظمى . وعند ما تحولت أنظار فرنسا إلى إنجلترا تحول الحقد إعجاباً ، والذم إجلالا وإكباراً . ولم يعد تفضيل شكسبير على كورنيل وراسين قاصراً على إنجلترا بل تجاوزها إلى فرنسا ، مع كثير من المغالاة . ولم يكن ڤولتير يتوقع مثل التحول الفجائى ولا مثل هذا الانفجار الكامن . فتألم ؛ لأن هذه المقارنة كانت تضايقه فى إنجلترا وتكاد تجترفه فى فرنسا . وبدأ منذ تلك اللحظة نزاعه مع محبي الإنجليز . ومع ذلك فقد اعترف فى المعجم الفلسفى « أن شكسبير عبقرى ، وأن مؤلفاته تتضمن مقطوعات تسمو بالمخيلة وتنفذ إلى القلب فالطبيعة هى التى تتكلم » . وفى النهاية طغت تلك الموجة وتفشت فى جميع الأوساط ، فنفد صبر

ڤولتير ، وهب يدافع عن راسين وكورنيل ، وأعلن الحرب سجالا ، وأخذ يكيل لهذا المعبود الجديد اللعنات ويصب عليه جام غضبه ، ويكشف عما فى « روميو وجولييت » من سخافات ، وما فى « عطيل » من ترهات وسفاهات .

فهل يمكن بعد ذلك أن يقال إن ڤولتير مسئول عن هذا الموقف ، أو يؤاخذ على هذا الانقلاب ويعد ما قاله من المتناقضات ؟

ولم يقف ڤولتير فى نقده عند راسين وكورنيل وشكسبير بل تجاوزهم إلى مونتسكيو مؤلف « روح الشرائع » . وقد اعتبر نقده لهذا السفر الجليل تحيزاً وقيل عن ڤولتير أنه قليل الاحترام خال من كل اعتبار ووقار . والواقع أن بعض انتقاداته كان قاسياً فقد قاده الجدل إلى أبعد مما كان يجب ، وكلامه عن بعض النقط كان لا يخلو من الرعونة والطيش وإن كان فى مجموعه منصفاً عادلا . فإذا قال إن مونتسكيو تغلب فيه الفكاهة دون الدقة ، وإذا كان يأسف على أن هذا الرجل « الذى يسمو بأفكاره العجيبة العميقة » لا يخضع للنظام ولا للطرق الواجب احترامها ، فهذا القول لا ينسيه أنه : « وهو محترم فى زلاته وسقوطه » لا يلبث أن ينهض سريعاً « ليسمو إلى العلياء » . إنه يحارب هذه « العبقرية السامية » على الرغم

منه ، فهو « متشبع بمبادئ روح الشرائع » . لقد كان اليسوعيون والجانسنيست يعارضونه ، ولكن « جل من يتناولون بالنقد مثل هذا السفر ، ينظرون إليه بمثابة قانون للعقل والحرية » . ويختم حملته بقوله : « يجب أن يكون هدى لمن يقبضون على زمام الحكم » .

لقد كان ڤولتير شديد القسوة على عصره . فذلك المجتمع الطائش يؤلمه بإفراطه فى استعمال عقله وتحكيمه فى غير ما يجب . ولم يكن وحده ليفكر فى ذلك . فلا غرابة إذن فيما كان يشعر به من غضب وحقد ، ولا عجب إذا رفض أن يعترف لعصره بما هو أهل له من الدقة وجلاء التعبير .

• • •

لقد خلا القرن السابع عشر فى فرنسا من المؤرخين ، إذا استثنينا بوسويه الذى جمع بين الدقة فى إيراد الوقائع وبلاغة الأسلوب ونعومة التعبير . ولكنه — على نقيض ذلك — اشتهر بعدد غير قليل من الأئمة الذين ألموا بحوادثه عن طريق ما جمعوه من حجج وأسانيد ومعلومات مستقاة من أقرب الموارد وأصدق المصادر . إلا أن هؤلاء كانوا يعلمون أن ما سوف يعود عليهم من ربح أو جاه لا يتناسب مع ما يتطلبه هذا العمل من توخى الدقة فى كتابته ، فعدد المطلعين عليه قليل ، فى حين أن السواد الأعظم

من المثقفين والشعب كانوا يميلون إلى الأحاديث المنمقة أكثر مما يميلون إلى الوقائع الصحيحة ، والرقابة كانت شديدة جائرة ، ونظام الحكم كان مستبداً ظالماً ، يرفرف بجناحيه على كتاب العصر ويهدد الجرئ بسجن الباستيل ، والمحسوبية منتشرة تلوح لذوى المطامع بالمناصب والإعانات وهى باسمة ساخرة . فعقلت الألسنة وخمدت الأذهان المفكرة وانطفأت شعلة العقول المدركة العاملة وأقلعت عن الكتابة واختارت الخلود إلى السكينة والراحة .

وفى نهاية القرن السابع عشر وغرة القرن الثامن عشر أخذت الأفكار تتحول وبدأ الشعب يميل إلى الاهتمام بالحقائق ، وتحرى الدقة ، والنقد ، وطالب باستقلال الرأى وحرية التعبير للوقوف على ما خفى عنه ، وظل تحت طى الكتمان . ونشر ربان دى تويراس تاريخ إنجلترا مع التعليق عليه فأثار الدهشة والإعجاب ، وشخصت الأنظار إلى ما وراء المانش .

وكان ڤولتير قد بدأ فى كتابة مؤلفاته التاريخية على هذا النحو الجديد ، وامتاز بإدراك ما يجب أن يكون عليه المؤرخ نحو الخلف وعدم قصر التاريخ على سرد أخبار السلف ، والوقائع الحربية ، والحوادث الدبلوماسية ، بل تجاوزها إلى التعليق على أخلاق الدولة وعاداتها ، وتجارتها ، وحياتها الداخلية . فاتخذ التاريخ شكلا محسوساً ، وأصبح عملا أدبياً جليلا .

وبدأ ڤولتير عمله التاريخى « بتاريخ شارل الثانى عشر » عام ١٧٣١ . وتعمد اختيار التاريخ الحديث لاعتقاده أن مثل هذا الموضوع يكون أكثر فائدة لرجال عصره مع ما كان يتضمنه من المغامرات والصفات العجيبة وما يتخلله من الوقائع الحقيقية والرسائل الصحيحة ، ووصف الحوادث والرجال ، وما أورده فيه من الفكاهات الواقعية فى قالب قصصى وأسلوب شيق رقيق . فتذوق الشعب هذا النوع الجديد وهلل له وكبر . وصاح النقاد بأن ما جاءهم به ڤولتير لا يخرج عن حد القصة وإن كان الواقع على نقيض ذلك . ففولتير كان ملماً بجميع دسائس عصره ودخائله ، فقد رجع إلى جميع الأسانيد وحادث شهود الرؤية ، وتحرى الحقيقة بحرية لا يشوبها تحيز ولا يجوز معها الشك . فإذا كان قد استخلص من حياة شارل الثانى عشر عبرة فلسفية وعظة أدبية ، وإذا كان قد اتخذ من شخصية ملك مجالا للتنديد بالحروب والتشهير بالفتوحات والمجد ، فلأن الدرس فى حد ذاته كان بارزاً ماثلا للعيان من الوقائع ولم تكن هناك أية حاجة لتحويرها .

وأعقبه « عصر لويس الرابع عشر » فكان له مغزى أسمى ووقع أشد . فقد فكر فيه ڤولتير عام ١٧٢٩ وبدأه عام ١٧٣٤ وقطع فيه شوطاً بعيداً حتى عام ١٧٣٨ حيث اضطر إلى وقف

عمله فيه تحت ضغط الحكومة واضطهادها له . ثم استطرد عمله وأتمه ونشره فى برلين عام ١٧٥٦ . على أنه حصل بعد هذا التاريخ على مستندات هامة عن لويس الرابع عشر من الدوق دى نوآى فتناول مؤلفه بالتنقيح ولم ينته من وضعه فى صيغته النهائية إلا عام ١٧٦٨ . ويعد هذا المؤلف مرجعاً تاريخياً حتى فى عهدنا. وقد تناوله بعض معاصريه بالنقد الشديد ، ورموه بالنظر إلى الحوادث نظرة سطحية وعدم العناية بالتاريخ ، والطعن فى وطنه والتشهير به ، والحط من مكانة عظماء فرنسا وأبطالها الخالدين .

على أن ڤولتير لم يقصد فى كتابه حياة لويس الرابع عشر ولكنه كان يرمى إلى الكتابة عن « روح رجال » القرن السابع عشر . وقد عاب عليه الإنجليز أنه يخلع اسم هذا الملك على عصر بأكمله فأفصح ڤولتير عن رأيه ودافع عن فكرته فى خطابه إلى اللورد هارڤى حيث يقول له إنه يرى فى عصر لويس الرابع عشر حلقة متصلة بسلسلة تاريخ عظيم بدأه بكتابه « محاولة فى الأخلاق » .

ولقد طبق ڤولتير فى هذا الكتاب طريقة « إدراكه للتاريخ » وتجاوز كل من تقدموه بأن أضاف إلى سرد الوقائع الحربية وذكر المعاهدات — التى قصروا كتابتهم عليها — صوراً لأخلاق العصر ووصفاً لرجاله وعاداتهم .

ومن فضائل ڤولتير ومحاسنه التى لا تنكر أنه عنى بجمع مواده عناية كبيرة وإن كان لا يخلو من بعض الشذوذ والخطأ فى صحة بعض المواضيع التى أوردها .

وإذا كان القرن السابع عشر يعد من أعظم العصور فى الشعر والفنون الجميلة فإنه ترك مجالا واسعاً وفراغاً عظيماً فى الفلسفة . وهذا ما يفسر لنا ما كانت عليه لهجة ڤولتير فى سرد الحوادث الدينية وما تتضمنه من سخرية لاذعة ، لا تلبث أن تتلاشى ويزول أثرها متى عرفنا أن ڤولتير كان يقصد من ورائها إلى محاربة التعصب الأعمى بالقوة المدركة . لقد كان فولتير يقصد إلى تصوير حركة المدنية ونموها ، وامتزاج العقل وتطبيقه على سعادة الإنسان . على أنه كان من غير الميسور وصف سير الإنسانية بدون ابداء الرأى فى القوة المحركة . فكان لا بد له أن يبعد عن التاريخ كل ما كان يتذرع به رجال الدين من وجود العناية الإلهية فى كل ما قيل وما عمل . فقال بأن الحوادث ليست إلا نتيجة للشرائع العامة ، وأن الاحتكاكات المتواصلة والصدفة هى التى تقرر مصير الشعوب .

لقد أراد ڤولتير أن يكون على جارى عادته واضحاً . فبسط الوقائع وأبعد عنها جميع الملابسات . لقد أراد أن يكون لتاريخه نجاح مآسيه المسرحية فكان له ما أراد . فهو لم يسرد وصفاً

لشخصيات ولكنه دلل على أن الحياة تتحرك فيها ولكنها لا تقف عند حدها . فصورة لويس الرابع عشر كما رسمها تتجلى على جميع صفحات الكتاب فى أوضاع متقلبة متعددة . وهو لا يتكلم إلى المخيلة إلا ليحمل على التفكير ، ويصل إلى أعماق الفكرة عن طريق المشاعر والحواس ، ولا يتخذ من الفكاهات إلا رموزاً تؤدى بالقارئ — بغير ما عناء — إلى التعليم والإلمام .

ليس شك فى أن تاريخ ڤولتير مثالى . ولقد دل الاختبار على أن الرجال يخضعون لعوامل باطنة مآلها السعادة أو الشقاء . وأن أظهر عوامل الشقاء هى الحرب والتعصب الدينى . فرأى أن خير علاج لهذه الحالة هو أن ينزع قناع الوهم الباطل عن أعين الشعب وتترك له حرية التفكير ، فهو متى فكر عقل ، ومتى عقل أدرك ، ومتى أدرك قل شقاؤه .

على أن تقدم العقل بطيء . ودم المؤرخ يغلى ويتخبط فى عروقه فلا يحتمل هذا البطء كلما وقع نظره على سلسلة الفظائع والسخافات التى ارتكبت وينطوى عليها التاريخ . فينفد صبره ، ويحمل على المغفلين والضحايا لتقديسهم لمضطهديهم . ويتناول بالنقد اللاذع إسراف الحكام فى سفاهتهم واضطهادهم للشعوب ، وإسراف المحكومين فى غباوتهم لاستسلامهم الأعمى لطغاتهم المستبدين . ولقد رأى ڤولتير أن الشعب لا بد أن يشعر

فى النهاية ويحس ، وأن هذا الشعور لا بد أن يقوده إلى التعقل والثورة .

لقد فكر ڤولتير فى الماضى وتأثيره على الأفكار . فلم ير أمامه إلا الكنيسة ، وقد كانت فى عهده من أنصار الرجعية والاضطهاد . ونسى أنها كانت فى عهد من العهود السابقة قوة فعالة ، وأن تلك القوة كانت تعمل فى سبيل الرقى وتحرير الشعوب من الاستعباد . فأشاد بذكر الإمبراطرة المضطهدين باعتبارهم حماة المجتمع العلمانى . وخلع على يوليانوس المتصوف الملحد رداء الفلاسفة الواقعيين . وامتدح جميع الحضارات التى لا تمت للمسيحية بعلاقة أو صلة . ومع ذلك فاللوم لا يقع على عاتق فولتير وحده . فالصورة التى تركها لنا مؤرخو القرن التاسع عشر عن العصور الوسطى ، غامضة زائفة . وما فيها من الحقائق — وإن كانت نادرة — يكفى ليبرر موقف فولتير ، وأنه إذا كان قد تمادى فى قسوته على هذه العصور فليس لميوله اللادينية ولكن للتدليل على مذهبه العقلى .

على أنه لا يمكن القول بأن تاريخ ڤولتير واف ممن جميع وجوهه ، وكاف ليتخذ حجة فى عصرنا . ولكنه يعد بمثابة نقطة تحول من التاريخ التقليدى إلى التاريخ العلمى . ولقد

ظل ڤولتير – حتى عهد النهضة الكاثوليكية والعهد الرومانتيكى فى القرن التاسع عشر – مرشداً للعقول المثقفة إلى طريق الحضارة وأسباب تطوراتها .

ڤولتير وچان چاك روسو

لقد وصفتَ الصداقة وجميع الفضائل وصف خبير وقف على دقائقها وأحبها » . . « فقلت لنفسي — دون أن أخشى الوقوع فى الخطأ : هذه الأقوال التى تسمو بنفسى وتلهب حميتى ، لا يمكن أن تصدر عن رجل يتهم بالتغاضى عن الفضيلة » .

هذا ما قاله روسو لفولتير فى الثلاثين من شهر يناير سنة ١٧٥٠ — وفى العاشر من شهر سبتمبر سنة ١٧٥٥ ، كان روسو فى زيارة ڤولتير ليؤدى واجب الاحترام « لزعيمه »، فشكره على أنه قد شرف جنيف باقامته فيها ، وأنه يشاطر مواطنيه اعترافهم بفضله ، ويرجو أن يزداد هذا الشعور متى انتفعوا بتعاليمه وعملوا بمبادئه الحكيمة . ثم قال له : « زيِّن الملجأ الذى اخترته ، وأَنِرْ شعباً جديراً بنصحك وتعاليمك ، وعلمنا ، يامن تجيد وصف الفضائل والحرية ، كيف نحبها ونقدسها بين ظهرانينا بقدر ما علمتنا كيف نحبها ونقدسها فى مؤلفاتك » .

ولكن يخال أن روسو قد نسى هذه الأقوال يوم دوّن فى

« اعترافاته » أن إقامة ڤولتير فى ضاحية جنيف قد آلمته وحملته على الإقامة فى « عزلته » ، إذ كان يقدر بأن جنيف لا تلبث أن تتأثر بنفاق ڤولتيز ويضل أهلها ضلالا مبيناً . — على أن إقامة روسو فى « عزلته » كانت فى التاسع من شهر ابريل سنة ١٧٥٦ ، وربما تهيأ لها فى أوائل السنة أو آخر السنة السابقة ، أى بعد تلك الرسالة ببضعة أشهر .

وفى الثامن عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٥٦ ، قرأ روسو قصيدة ڤولتير فى نكبة لشبونة ، فخيل إليه أنه على خلاف مع ڤولتير ، على أن هذا الخلاف لن يحول دون حبه له « كأخيه » واحترامه « كأستاذه » ، حتى لقد اعتذر عن غيرته التى كان يجاهر بها وما كان ليكشف عنها لو أنها من شخص دونه احتراماً ، وأنه إذا تغاضى عن إعجابه بكتاباته فهناك « تقديره وصداقته لشخصه » .

وظل فيما بعد يقول بأنه مريده ، ومن أشد المعجبين به . وعند ما أثير موضوع إقامة تمثال لفولتير ، كتب : هذا العمل الجليل يشرف فرنسا ؛ وأرسل قيمة اكتتابه .

فكيف اختلف روسو مع الرجل الذى كان يشعر نحوه بتلك العاطفة الروحية ويبدى له مثل هذا الإعجاب الفياض ؟ . . .

لقد عللوا هذا الخلاف بما كتبه روسو إلى دالمبرت عن المشاهد . وهذا غير صحيح .

كان ڤولتير يقول : « لا شيء أفضل من الجمع بين الرجال ليؤهلهم للحياة الاجتماعية ، ويلطف من حدة أخلاقهم ، ويشحذ عقولهم ، ويجعلهم ينعمون بأمتع ملذات العقل » . ثم عقب على ذلك بقوله : « هذه أحسن تربية وأفضل ثقافة يمكن أن يثقف بها النشء وأنبل متعة للعقل ، وخير عمل لجميع طبقات الشعب ؛ وقد تكون الوسيلة الوحيدة للجمع بين الرجال وإعدادهم للحياة الاجتماعية » . وكان يقول بأن الفرنسى لن يخلع عنه رداء الوحشية ، ما لم يكن لمطران باريس ووزير العدل ورئيس المحكمة « لوج » فى الأوبرا ومسرح الكوميدى . وكان شغوفاً بتأليف مسرحيات التراجيدى وتمثيلها . فمهما كانت الحملة ضد التمثيل عنيفة فإنها لا تقلقه كثيراً وإن كان لا يرتاح لها . فى سنة ١٧٥٨ طغت على سويسرا موجة شغف بالمسرح الهزلى وميل عجيب إلى التمثيل . وكان ڤولتير قد اشترى قصر فرنيه وبسط سلطانه على من فيه ، فلم يخشى أن تحول تلك الحملة بينه وبين تمثيل مسرحياته فى قصره . ولكنه بدأ يشعر بالخوف مما كان يسميه « حملة العصابة المخيفة » بعد ثلاثة أعوام ، ولم

يتبين له فى البدء أن رسالة روسو كانت خطراً يستحق اللوم إلا لما ورد فيها عن الدين .

كان دالمبرت قد أقلق رعاة الدين فى جنيف عند ما تكلم فى « الموسوعة » عن آرائهم فى مختلف مبادئ الإيمان . وقد كتب له فولتير : « إنهم يتحركون ويعوون ، ويحاولون دفع القضاة إلى مطالبة البلاط بالتدخل ليحملك على إنكار ذلك من جانبك ؛ هؤلاء الهراطقة يتآمرون علينا ؛ إنهم يفخرون فى جنيف بأنك ستزغم على التنحى عن العمل فى « الموسوعة » . . . فإذا كنت تشعر بشىء من الاشمئزاز ، فإننى أرجوك أن تكتمه فى نفسك . . . أما أن تتخلى عن هذا العمل العظيم ، وتمكن أعداءك المحتقرين من هذا النصر المبين ، فهذا ما لا أستطيع احتماله » . ولم يثمر إلحاحه فقد أجابه دالمبرت : « سيرسل هؤلاء السادة بعثة إلى بلاط فرنسا ليكرهونى على العدول عن رأيى . ومقال جنيف حمل إلى البرلمان . . . لست واثقاً من استمرار العمل فى الموسوعة ، ولكننى واثق من أننى لن أستمر فيها . إننى متغيظ للغاية من الإهانات والاضطهادات التى يجرها على هذا المؤلف » . وكان روسو لم يكتب رسالته بعد . وزعم بأنه يشكو من تصرفات المنتمين إلى « صالون » مدام دبينيه ؛ فسواء أكان هذا الزعم صحيحاً أم لا ، فإنه كان يثنى على

دالمبرت ولا يهاجمه ويصرح بأنه مدفوع إلى محاربة خططه . وهذه الرسالة هي التي اشتهرت باسم « رسالة فى التمثيل » . على أن تلك الرسالة تتناول أموراً أخرى غير المسرح ، فهى تبدأ بالاعتراض على ملاحظات دالمبرت بشأن عقائد الرعاة الكالفينيين ، وبذلك يكون قد جدد النزاع الذى قام بمناسبة مقال جنيف بعد أن هدأت العاصفة التى قامت بشأنه .

وفى سنة ١٧٥٨ كتب روسو إلى دالمبرت رسالة أخرى تناول فيها نقد الفكرة القائمة بعدم إنشاء مسارح فى جنيف وجاء فيها : « فليتنازل السيد ڤولتير ويؤلف لنا تراجيديات على غرار « موت قيصر » والفصل الأول من « بروتوس » ، وإذا كان لا بد لنا من مسرح ، فليتعهد بتغذيته دائماً بعبقريته » . وفى يناير سنة ١٧٦٠ — أى قبل انقضاء عامين على تلك الرسالة — كتب إلى مولتو : « أنت تحدثنى عن ڤولتير ؛ لماذا يدنس اسم هذا المهرج رسائلك ؟ لقد أضاع هذا الشقى وطنى ، وقد يكون حقدى عليه مضاعفاً لوأن احتقارى له كان أقل . إنى لا أرى فى مواهبه العظيمة إلا عاراً أفظع . إن مواهبه لا تفيده ، وكذلك أمواله ، إلا لإشباع نهم قلبه وفساد أخلاقه . إيه ، جنيف ! إنه لينكر جميلك ويجزيك على ضيافتك له شراً . لم يكن يعرف أين يذهب لعمل الشر

والإساءة ، ولكنك ستكونين آخر ضحاياه » . ثم التقى بفولتير وقال له : « إننى لا أحبك فقد ارتكبت معى شر ما يمكن أن يؤذى أدق مشاعرى ، لقد أضعت جنيف ، ولم ترع حرمة الضيافة ؛ لقد نفرت قلوب مواطنى منى . . . أنت الذى سيضطرنى إلى الموت فى ديار الغربة محروماً من جميع تعزيات الموتى والمحتضرين ، وأن يقتصر فى تمجيدى على إلقائى فى الطريق . إننى أكرهك » . تلك لهجة غريبة ، ولكن لم عساه أن يكون ذلك كله ؟ ذلك لأن ڤولتير قد ساعد سكان جنيف فى ميلهم إلى التمثيل وشجعهم عليه ، وإن كان هذا الميل قد تجلى عندهم قبل أن يقيم بينهم . لقد نسى روسو أن الأخلاق فى جنيف بدأت فى الانحطاط لعشر سنوات خلت ، وأنه فى رسالته إلى مولتو عام ١٧٦٠ يعترف بأنه أخطأ ، وأن أخلاق مواطنيه أشد فساداً مما كان يتوهم ، وأنه لا يوجد علاج لذلك ، وأن كل ما يجب عمله يقتصر على تخديرهم بالمسكنات ، وأن التمثيل هو خير المسكنات . ثم ما كتبه إلى مالرزب ، بعد عام من ذلك ، عن تصرفاته بالذات ، فكانت رسائله « نسيجاً من المطاعن ، والجنون ، والسفاهة » وعن هلوسته التى ترتعد منها فرائصه وتجعله « محتقراً » ، وعن « السخط العادل » الذى يستحقه . . . لقد كانت حالته العقلية تفسر ما ورد فى

رسائله بوضوح وجلاء .

وتمت القطيعة بين روسو وڤولتير . وكان ڤولتير قد هوجم واتهم بإفساد الأخلاق ، فهاجم بدوره بشدة ، وازداد احتداماً ، ولم يضع حدا لمحاربة العداء بمثله ، وبصفة خاصة بعد اطلاعه على ما تضمنته « رسائل من الجبل » حيث لُقب فيها بمؤلف « عظة الخمسين » وبعد أن اتهمه روسو بأنه اشترك فى الحكم على « إميل » . واستمرت المناظرة بينهما واحتدم الجدل طويلا ، وتبودلت فيها عبارات السب والطعن فى الشخصيات .

فى سنة ١٧٥٨ كان ڤولتير قد بلغ ذروة المجد وتبوأ عرش الشهرة والجاه . فكان مقضياً على مؤلفات روسو ألا ترى النور إلا فى السنوات التالية ، وعند ما يكون ڤولتير قد بلغ الخامسة والستين وتجاوزها . كان روسو خبيراً بعبقرية ڤولتير ويقدر مكانته . أما فولتير فلم يكن يعرف ، ولن يعرف أبداً ، أن روسو كان من العباقرة ومن أنداده الأفذاذ . وعند ما احتدم النزاع بينهما لم ير فيه إلا كاتباً متناقضاً فصيحاً ذرب اللسان . ومن أهم العوامل التى أدت إلى ذلك النزاع هو إذاعة القصيدة التى نظمها عن حرب جنيف وانتشارها مع أنها لم تنشر فقد سرق جزء منها . على أن السارق — ويخال أنه لاهارب — قد أقدم على نشرها بغير علم ڤولتير الذى استاء كثيراً من هذا

الأمر وقلق له . وحاول دالمبرت — فى بادئ الأمر — أن يهدئ من حدة ڤولتير وثورته ، ولكنه لم يلبث أن اقتنع بأن روسو مجنون خطر وشرير كبير .

ووجد روسو فى جنيف من يدافع عنه . فكتب ڤولتير إلى داميلاڤيل فى الثالث والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٧٦٣ : « هلاّ تبارك الله على التفاف شعب كالفين حول جان جاك؟ فلنتجاوز عن شخصه ولننظر فى قضيته » .

وفى أول يولية سنة ١٧٦٤ قال : « إن روسو لم يضطهد هنا (فى جنيف) إلا لشعور كنت أحس بمثله ، وإنى لأعتبر نفسى شقية غبية لو أنها فكرت فى تحقير فلسفة أحبها ، أو أننى طالبت بمعاقبة رجل منهم بنفس الأشياء التى تعزى إلىّ » .

لقد قارنوا فى القرن التاسع عشر بين هذين القطبين وحكموا بأن ڤولتير كان أقل سفسطائية من روسو . أما فى عصرهما فلم ينظروا إلى هذا الفارق . فكوندورسيه كان يعتقد بأن روسو قد حمل الشعلة إلى ڤولتير وأوحى إليه بحملته على الدين .

وإذا كان ڤولتير قد اتهم بالإلحاد ، فروسو لم ينج من مثل هذا الاتهام . فقد كتب إلى ڤولتير فى الثامن عشر من شهر أغسطس سنة ١٧٥٦ : « إن مؤلفاتك توحى إلى بكثير من

الأفكار بل أكثرها تعزية فى موضوع الألوهية . أما أنا ، فإنى أصارحك بكل تواضع ، بأن ما كتب فى سبيل تأييد هذه الفكرة أو إنكارها لا يفسر لى هذه النقطة إطلاقاً . . . فاعتراضات الجانبين لا يمكن حلها » .

أما فى ميدان السياسة فإن الصراع بينهما كان أخف وطأة مما كان عليه فى ميدان الدين . فلطالما قارنوا روسو ، رجل الشعب الجمهورى والفقير الديموقراطى مولداً وأخلاقاً ، بفولتير شريف البلاط ، وأحد أقطاب الملكية . ومع ذلك فقد أكد ماتيو ماريه المشرع الأديب ، منذ عام ١٧٣١ ، أن ڤولتير لم يكن صديق الملوك ، وأنه لا يحترم الدول . وأكد كرندوسيه من جانبه حقد ڤولتير على الحكم الاستبدادى وأشار إلى أفكاره الجمهورية التى تتخلل مسرحياته وتبرز فيها بجرأة مدهشة ، وشغفه بحرية الشعب ، تلك الحرية التى طالما تغنى بها نظماً ونثراً ويقول فيها :

« إن إلهة البشر الخالدة ،
« وروح الأعمال العظيمة ، وغاية الأمانى الشريفة ،
« تلك التى يقبلها كل حى ، ويرغب فيها ، ويناديها ،
« تلك التى تحيا فى جميع القلوب ، واسمها المقدس
« يعبد فى صمت وسكون فى بلاط الطغاة ،

« هى الحرية !

وذهب به حبه للحرية إلى التجنس بالجنسية السويسرية ، لأن سويسرا بلد حرة ، جميع ولاياتها متساوية ، وجميع رجالها إخوة . وعلى الرغم من ذلك فقد اتهموه « بحب سلطة الفرد حباً جماً » .

فلو أن روسو ، بدلا من كتابه « عراف القرية » ألف بعض المسرحيات الشعبية ، لرجعوا إليها فى تعليل انهيار الملكية . كانت مسرحيات ڤولتير عن « موت قيصر » و « إنقاذ روما » و « بروتوس » قد شحذت العقول وهيأتها ؛ ولكنها كانت « مسرحيات مناسبات » مثلت إبان الثورة الفرنسية ونجحت نجاحاً باهراً ، ولكنهم لم يهتموا بها كثيراً أو طويلا .

ويستدل على ميول ڤولتير الجمهورية من قوله فى « المعجم الفلسفى » : « إن اختراع مهاجمة الجار ، وسلبه ، والفتك به ، يمكن أن يعد أساساً للحكم الملكى . إن الرجال يولدون متساوين ، والأسياد الأول وجدوا بفضل الشدة والمكر » . . . ثم يقول : « أيهما أصلح ، أن يكون وطنك مملكة أم جمهورية ؟ إذا رجعتم إلى الأغنياء تسألونهم عن رأيهم فإنهم يفضلون الأريستوقراطية ، وإذا استفتيتم الشعب فإنه يريد الديموقراطية ؛ ولا يوجد من يفضلون الملكية غير الملوك . . . لا توجد حكومة كاملة ، ولكن

أحبها بغير شك هى الحكومة الجمهورية لأنها تقرب الرجال من المساواة الطبيعية . . . إن الحرب الهجومية هى التى أوجدت الملوك الأول ، والحرب الدفاعية هى التى أقامت الجمهوريات الأولى . . . على أنه يجب أن لا يوجد على وجه الأرض إلا عدد قليل من الجمهوريات . فالرجال غير جديرين بحكم أنفسهم . وتلك السعادة يجب أن لا تكون إلا من حظ الشعوب الصغيرة التى تتوارى فى الجزر وتختفى بين الجبال » .

كان فولتير يقول ذلك بكل جرأة غير هيّاب ولا وجل . أما جان جاك روسو فقد هاب الخطر الذى يتعرض له كل من يحاول أن يزعج الجموع المتألبة التى تلتف حول الملكية الفرنسية فهو لا يسلم بأن رجلا فرداً ، أيا كان شعوره ، يستطيع أن يقاوم تيار العادات القديمة ويحطمها ، وأن يغير التقاليد ، وأن يعطى للدولة شكلا غير الذى توطدت أركانه بمرور الأجيال المتعاقبة ، أما ڤولتير فكان على نقيض ذلك . فهو لا يشاطر روسو هذه المخاوف والأوهام . فقد علمه الاختبار والتاريخ ، أنه ، إذا كان الشر متأصلا فى جوف الأرض ، فلا بد من صاعقة لتدك جذوعه . « إن أغلب أخطائنا وشقائنا نتج عن خضوعنا الأعمى للعادات القديمة التى يطلق عليها اسم الشرائع . . . وإن الشعوب لم تخضع للملوك لتستبعد أو

تُسلب . . . وإن لندرا لم تصبح جديرة بالإقامة فيها إلا بعد أن دكت صروحها ؛ فإذا كنتم فى حاجة إلى شرائع عادلة ، فاحرقوا ما لديكم منها وضعوا جديدة غيرها . . . جميع عاداتنا لا تصلح إلا لتكون طعاماً للنار . . . أيتها العدالة المقدسة أسمعى صوتك الرهيب الصارم » .

فأنى لروسو تلك البلاغة والقوة ؟

الفيلسوف

لقد طالما طعنوا فى ڤولتير وقالوا بأن مؤلفاته سلبية ، وأنها مجرد نظرة سطحية غير عميقة ولا صحيحة . . . وليس شك فى أنه قد انتقد كثيراً ، وأنه قد هدم ، ولكنه قد أثار فى العقول إحساسات مؤلفة من عقائد لا يتطرق الشك فى قيمتها الواقعية . فقد أراد أن يعلم الرجال التفكير فى السعادة بطريقة يمكن تحقيقها .

كان ڤولتير يرى أن الخطأ والشر يقومان على أساس تكييف فكرة النمو البشرى ويقول بضرورة تعديل هذه الطريقة أو استبدالها . وكان لا يتأتى لفلسفة ڤولتير أن تستغنى عن قاعدة تاريخية ترتكز إليها . وقد وضع تلك القاعدة فى كتابه « محاولة عن الأخلاق » ثم توسع فى هذا الموضوع بعدة نشرات وكتابات أضاءت جميع أنحاء الماضى بأنوارها الفلسفية .

إن جميع المؤلفات التاريخية المنظمة التى وضعها ڤولتير بعد عام ١٧٥٦ جديرة بالاهتمام . فلم يحدد ڤولتير بواسطتها تاريخ القوة المدركة ولكنه حدده فى الرسائل والنشرات المتعددة التى

طبعها وقام بتوزيعها . فلم يترك عصراً إلا تناوله بالبحث والتنقيب والمناقشة ، فلم يتجاوز أية مسألة بغير مساس ولم يتقهقر أمامها .

لقد كانت ثقته بنفسه مزعجة . فكان يعبث بالوقائع ، والنصوص ، إلى حد كان لا يمكن معه وضع حصر لطيشه وأخطائه وأهوائه . وكان لا يتبع فى كتاباته طريقة الحرص فى التعبير التى يتبعها أئمة التاريخ فى عصرنا ، ويتجنب الدقة فى الاستقصاء والتحرى . فكان يعمل طويلا ويشتغل كثيراً ويبدى حكمه على الأشياء بنظرة عابرة ويفصل فى المواضيع معتمداً على شدة نفوذه وسلطته لا على كفاءته وخبرته . كان كثير الأوهام ينضح بالشهوات . إنه هاو وصحفى ، ولكنه مع ذلك كثير الفضول ، عبقرى ، متشبع بروح الحق والحدس وشعور النقد ومدى المهمة الملقاة على عاتقه . وإلى جانب ذلك فقد تبين له أن أئمة التاريخ فى عصره كانوا لا يبصرون أو أنهم كانوا يتغاضون .

لقد قصر جهوده ووقفها على تحطيم الإطار التاريخى الذى ارتاحوا إليه ، فاندفع فى تلك المغامرة بكل قواه وإن لم يخل عمله من الطيش فى كثير من المواقف . فأثار حقدهم عليه فقد كانوا كلهم على جانب كبير من الحرص ، موسوسين ،

لا يحبون الدخلاء ولا المتطفلين . وقد وقع فى نزاع مع المؤرخ فونسيانى ، دوام خمسة عشر عاماً ، حول « وصية الكاردينال دى ريشليو » وانهزم أمامه إذ لم يستطع إثبات نظريته والتدليل على عدم صحة تلك الوصية ، على أن العلم استفاد من ذلك النزاع لأن الشك الذى أثاره ڤولتير حولها بحملاته قد أعطى للوصية شكلا علمياً .

أما نزاعه مع العلامة لارشيه ، فكان أشد وطأة . فقد تجلت فيه السفاهة والتراشق بالألفاظ الوضيعة والنعوت البذيئة من الجانبين . لقد سخر منه ڤولتير بقسوة فلقبه لارشيه بالعملاق الملحد والوحش المفترس . والغريب فى ذلك أن لارشيه كان على حق من ناحية التفاصيل ويكفى أن تقارن الطبعة الثانية من كتاب ڤولتير « فلسفة التاريخ » بالطبعة الأولى ، للوقوف على ما قام به ڤولتير من تغيير وتبديل . كان ڤولتير يتناول المراجع الجغرافية والتراجم الخاطئة والمصادر المكذوبة كما تُقدم له ولا يعنى بتحرى صحتها أو مراجعتها لانهماكه فى عمله واعتقاده بحسن نية مقدميها ؛ فى حين أن العالم المدقق ملزم بتجنب الأخطاء التى يقع فيها الأديب الطائش .

لقد كان ڤولتير يناقش ، ويجادل ، ويحوّر ، وينقل المختارات والنبذ التى لا تفيد ولا تدلل على شىء . وكان ينصب

نفسه مدافعاً عن الدين ويرفض أن يدس عليه ما من شأنه أن يثير الريبة والشك . وكان يعتقد انه لا يمكن اعتبار التاريخ – وبصفة خاصة التاريخ القديم – تاريخاً صحيحاً إلا بنقد الشهادات والأسانيد ، ومناقشة التواريخ وصحة النصوص والتأكد من حقيقتها . ولذلك كان يلقى على نفسه الأسئلة ويجيب عنها فإذا اقتنع سلم وإن لم يقتنع جادل وأحدث ضجة . وكثيراً ما كان يقف مونتسكيو حائراً إزاء هذه الأسئلة على الرغم من أنه كان أوفر من ڤولتير إدراكاً وعلماً .

وبدأ ڤولتير ، فضرب بخياله فى الماضى البعيد ، فتصور أجناساً من مختلف الرجال ضمتهم مجتمعات . وهؤلاء الرجال الآبدين البهيميين ، تمكنوا ، مع الزمن ، من وضع لغة يتكلمون بها ، ثم أفلحوا فى صنع ملابس يرتدونها ، وإقامة أكواخ يستترون بداخلها ، ثم تناولوا المعادن فصقلوها .

ودار الزمن دورته فتألفت المجتمعات الكبرى حكمتها سلطات تيوقراطية أو سلطات من سلالات الآلهة . وبدأت الحضارات الأولى فى الصين والهند والعجم والكلدانيين . فأيها أقدم ؟ إنه لمن الصعب البت فى ذلك . .

وإذ ذاك تأسس العلم ووجد الفلك وعلم الحساب . ونشأ الدين الحقيقى الذى يقول به « مذهب الإيمان » وهو عبادة

إله واحد . فكان ذلك ثمرة العقل المفكر عند فلاسفة الكهنة ، والبراهمة ، والمجوس ، وحكماء الصين . ثم تلاهم الفينيقيون ، فالمصريون . وفى النهاية جاء اليونانيون الذين أخذوا حضارتهم عن الفينيقيين والمصريين ، وكان منهم كثير من المشرعين . ثم الرومان ، وهم أحدث الشعوب القديمة ؛ وقد نقلوا طقوسهم الدينية وشرائعهم عن اليونانيين . إن تاريخهم غامض ومشكوك فيه خلال السنوات الأربع الأولى . لقد ورد فى الكتب أن روما توسعت عن طريق السلب والنهب ، وأنها فتحت العالم بنظامها ووطنيتها ، ولكن أية قيمة للرومان لصوص العالم ، إزاء اليونانيين الفلاسفة المتحضرين ؟

إن الروح التاريخية تشغل حيزاً كبيراً فى تكوين عقل فولتير ونظرته التاريخية تسيطر على كل فلسفته . لقد أدرك أن تناقض اللاهوت يكوّن التاريخ فوضعه على بساط البحث وشرحه وحلّه ، كما حل كثيراً من المسائل كمسألة ما بعد الطبيعة ، والمراسم الدينية ، والمعاهد الاجتماعية ، بأن أعادها إلى أساسها التاريخى .

تلك كانت فلسفة ڤولتير قبل عزلته فى فرنيه . كان يفضل علم الطبيعة على ما بعد الطبيعة . واستمر على هذا التفضيل فى عزلته ولكن بطريقة نظرية . واقتصر على التحدث عن مواضيع العلم العميقة ، وعن تكوين الأرض ، والسلالات . كان

يلذ له أن يعلن عن سيادة الاختبار ويعارض الأقيسة . ولكنه احتفظ « للمهندس الأزلى » بخاصياته واختصاصاته .

كان موضوع « ما بعد الطبيعة » فى ذاته لا يهمه ولذلك أهمله فى مؤلفاته فى العشرين سنة الأخيرة من عمره . لقد قصر اهتمامه على الدين والأخلاق ، ولم يتخذ من علم « ما بعد الطبيعة » إلا ما لا يمكن فصله عنهما . كان يعتبر هذا العلم مقرا للمجهول ، وكان يقول بأن الفيلسوف الحقيقى هو « الفيلسوف الجاهل » .

وكان من أشد أنصار مذهب الإيمان . وقد دافع عنه بحرارة وحارب النفى الخطير عند الملحدين المتهورين ، وغمر أوربا بنشرات هجاء بأسماء مستعارة مختلفة ، صودرت واستنكرت ، ولكنها مع ذلك أخفيت وتُليت وأعجب بها أصحاب الرؤوس المفكرة فى عصره .

كانت أغلب مؤلفاته فى فرنيه هدامة . فقد كان يرمى إلى التدليل على أنه من السخف التفكير فى أن الله صاحب العزة والجلال ، خالق السماء والأرض ، قد اختار اليهود ، وهم قبيلة صغيرة من البدو الرحالة ، ليجعل منهم شعبه المختار .

وقد وضع مؤلفاً فى هذا الصدد بعنوان « تفسير التوراة » ضمنه كثيراً من الشروح والتعليقات . لكى يدلل على أن

منازعات الأجناس التى تناحرت بسبب عبارات وكلمات منذ ثمانية عشرة قرناً ليست إلا سخافات طائشة مجنونة عابثة .

ولقد كان نقد ڤولتير للتوراة مثاراً لنقد شديد . ورُمى فولتير بأن علمه التاريخى لا يخلو من الأخطاء فى أغلب المواضيع . وحاول ڤولتير أن يكون أكثر نزاهة فى انتقاداته فقال : « لقد طالما رددنا بأنه لا يجب الحكم على تلك الأجيال بالقياس على جيلنا، ولا الحكم على اليهود بالقياس على الفرنسيين والإنجليز » .

فما هى فلسفة فولتير الواقعية ؟ هى مذهب اللاأدرية مهذباً بتعاليم مذهب الإيمان . ويستدل على ذلك من قوله : « من الطبيعى أن يعترف الإنسان بإله واحد عند ما يفتح عينيه . . . فالعمل يعلن عن العامل . فتلك الكواكب التى ترقص حول الشمس يحركها فن عظيم مدهش . كما أن الحيوانات ، والنباتات ، والمعادن ، منظمة بدقة ومستوفاة العدد والحركة . لن يشك فرد أن المصورة أو الحيوانات المرسومة ، من صنع فنان ماهر . فهل يمكن أن تكون فى مثل هذا الذكاء دون أن تكون الأصول كذلك ؟ »

أما عن طبيعة الله ، فإنه لم يتكلم عنها كثيراً ، وهو يقول : « يقول لنا المتعصبون : — إن الله جاء فى زمن ما ، وحجّر قلوب سامعيه لكى لا يؤمنوا به ، وتحدث إليهم وأصمّ آذانهم — إن

الأرض بأسرها يجب أن تسخر من هؤلاء المتعصبين . وإنى لأقول هذا القول عن جميع الآلهة التى اخترعوها ، ولن أرحم وحوش الهند أكثر مما أرحم وحوش مصر — إنى لارثى لحال جميع الأمم التى هجرت الله العظيم العالمى ، لمثل هذه الأشباح من الآلهة الخاصة » . وإذن فالمذهب الوحيد الذى يجب اتباعه — على حد اعتقاد ڤولتير وتعاليمه — هو المذهب الذى قال به وهو مذهب الإيمان ، والإنجيل الوحيد الذى يجب قراءته هو إنجيل الطبيعة ، والدين الوحيد الذى يجب اعتناقه هو أن يعبد الإنسان الله وأن يكون شريفاً » .

لقد طالما نقدوا فلسفة ڤولتير بشدة متناهية ، ووصفوها بأنها « سديم من الأفكار الواضحة » . وقالوا عنه بأنه : « يصغّر الأشياء العظيمة بشدة إيضاحه لها وجعلها فى متناول الجميع » . على أن ڤولتير قد بيّن — فى إحدى ساعات صراحته — حدود الإيضاح ، وما يوجد فيما هو مقدر للإنسان من جنون وخلط . فهو يقول فى « المعجم الفلسفى » : « إننى أجهل كيف ركبت ، وكيف ولدت . لقد جهلت — خلال ربع عمرى — السبب فى كل ما رأيت وسمعت وأحسست ، ولم أكن إلا ببغاء أردد ما يردده غيرى من الببغاوات . . . عند ما أردت أن أضرب فى هذا الميدان اللانهائى ، لم أستطع أن أجد طريقاً واحداً ،

ولا أكتشف شيئاً واحداً ، والقفزة التى قفزتها إلى العلى لأشاهد الأبدية قد هوت بى إلى هوة جهلى السحيقة » . هنا يتجلى ڤولتير القلق ، وهو خير ما فى ڤولتير . فهذا الشعور هو الذى دفعه إلى أن يكتب « كانديد » وهو يعدّ خير ما كتب .

لقد ألف ڤولتير هذه القصة ليدلل على سخافة تفاؤل ليبنتز . لقد درس ڤولتير حياة الرجال عن كثب ، وعاش ، وجاهد ، وتعذب ورأى عذاب غيره . حقّاً إن عهد المحارق ، والمواقع الحربية ، والمقاصل ، والأمراض ليس بالعالم الطيب . إن تشاؤم ڤولتير فى هذا الكتاب أثار عاصفة من النقد الشديد فى جميع العصور التى مر بها . فبعضهم قال بأن هذا المؤلف تضوع منه رائحة سرور جهنمى ، وكاتبه مخلوق تختلف طبيعته عن طبيعتنا ، ولا يهتم لحظنا ، ويسر لآلامنا ، ويضحك كشيطان أو قرد من شقاء الجنس البشرى . وبعضهم عزا تلك الضحكة الجهنمية وذلك التشاؤم الميئس الذى لا يجدى فى الطبيعة بأسرها وفى المجتمع إلا ليتخذ مجالا للثاب والازدراء والتهكم ، إلى طبيعته الضئيلة الثورية وروحه المتمردة . وبعضهم رأى فى كانديد تشاؤماً مطلقاً لا يقبل استثناء ولا أملا ولا شكوى .

ولكن يخال أن هؤلاء وغيرهم قد حمّلوا ڤولتير وزر ما لم يرد قوله . إنه ينقض قياساً ولكنه لا يؤيد قياساً معارضاً . إنه يظهر

الشر الذى يوجد على وجه الأرض ولكنه لا يقول بأن كل ما عليها شر . أو أن هذا الشر لا يمكن تجنبه وتلافيه حتى ليجب تحمله بصمت كئيب مخيف . إنه على العكس يقدم المثل على المعارضة بمجاهرته بها .

أما ليبنتز ، وبوب ، وشافتسبورى وغيرهم من أصحاب المذاهب المنافقة ، فإنهم يفرضون علينا ما لم يفرضه الرواقيون بالذات . كانوا لا يقولون بعدم اعتبار الحزن فحسب ولكنهم يقولون بأن الشر لا يوجد إطلاقاً فى هذا العالم . وهذا ما ثار عليه ڤولتير . فهل كان كلنبروك يدرك حقيقة نفسه تماماً عندما سلم بهذا المبدأ ؟ وما معنى عبارة : « كل شىء حسن » ؟ هل كان يقصدنا بذلك ؟ يقيناً لا .

ثم ما هو التشاؤم ؟ هل يكون الإنسان متشائماً لأنه يسخر من السفسطائى الذى – على الرغم من أنه قد صُلب ، وفككت عظامه ، وسلخ جلده من ضرب السياط ، وزج فى السجن – يظل يردد بأن كل شىء على أحسن ما يكون ، وأن ليبنتز لا يمكن أن يخطئ ، وأن التناسق الموجود يعد أجمل شىء فى العالم ؟ وهل يكون الإنسان متشائماً لا به يخرص المتفائلين الأغبياء الذين يشكرون الله الكريم لأنه لم يحرق ابنهم بأكمله عند ما سقط بداخل الموقدة ؟

إن موضوع « كانديد » بسيط . لقد أخذ « كانديد » يلم بأخبار الجيوش ، ومحاكم التفتيش ، والجرائم ، والسرقات ، وهتك العرض ؛ وجاب أنحاء فرنسا وإنجلترا وتركيا ؛ ولاحظ فى كل مكان أن الرجل حيوان شرير . إن الفلسفة التفاؤلية فى هذا الكتاب ممثلة فى شخص بانجلوس ، والتشاؤم ممثل فى شخص مارتان الذى كان يقول بأن الرجل « وجد ليعيش فى تشنجات القلق وسبات العدو » . ولكن فولتير لم يأخذ على عاتقه تحبيذ تشاؤم مارتان ولا تفاؤل بانجلوس . وتنتهى القصة بعبارة : « يجب أن نزرع حديقتنا » . ومعنى هذا أن العالم مجنون قاس ؛ وأن الأرض تزلزل ؛ والسماء ترسل صواعقها ؛ وأن الملوك يتقاتلون والكنائس يضطهد بعضها بعضاً . ولذلك يجب أن نحدد نشاطنا ، ونحاول أن نؤدى واجبنا بقدر ما تسمح به جهودنا .

تلك خاتمة علمية . فالعمل من واجبات الحياة ؛ فيجب إذن أن نعمل ؛ وليس كل ما فى الحياة خيراً ، ولكن كل ما فيها قابل للتحسن . إن الرجل لا يستطيع أن « يمحو قسوة الكون ، ولكنه يستطيع أن يحمى بعض أجزائه بحرصه » .

إن فولتير يعارض تشاؤم بانجلوس ويناقض تفاؤل مارتان ، واللاهوت المسيحى ، وليبنتز الرواقى ، بواسطة العلم الذى قال به

نيوتن وهو العلم المحدد بالطبيعة ، فهذا العلم وإن كان لا يؤدى بنا إلا إلى غاية محدودة إلا أنه يجعلنا نسيطر على بعض الظواهر الطبيعية .

تلك نظرة عامة عن فلسفة فولتير من الوجهة التاريخية . وهو جدير بأن يدرس من الناحية الدينية والأخلاقية والسياسية .

• • •

كانت فلسفة فولتير الدينية ترمى إلى الاعتراف بوجود الله ، إن لم يكن بطريق اليقين فعلى سبيل الاحتمال الراجح . على أنه – وإن لم يوجد ما يعزز ما يرمى به من الإلحاد – يمكن الجزم بأنه لاديني . فهل كان كذلك ؟

يقول فولتير – فى مقدمة أحد مؤلفاته عن الكونيات والغيبيات – « إن اختيار دين هو جل ما أتمناه » . وتلك العبارة كافية للتدليل على أنه ليس بغير دين ، ولكنه يرفض التسليم بدين قائم وأنه يريد أن يقيم لنفسه ديناً . ثم هو يتبع العبارة السابقة بقوله : « على من عسانى أن أعرض روحى ؟ أترانى أكون مسيحياً لو أننى خلقت فى لندرا أو مادريد ؟ أم ترانى أكون مسلماً لو أننى كنت من مواليد تركيا ؟ لا يجب أن أفكر إلا بواسطة نفسى ولنفسى . . . » .

فمن يقول بأن فولتير لاديني لا يعبر عن الحقيقة ، ولكن

الحقيقة أنه كان ينكر الخرافة ويقول : « إن الخرافة بالنسبة للدين كالتنجيم بالنسبة لعلم الفلك ، والفتاة المجنونة بالنسبة للأم الحكيمة العاقلة . إن الخرافة ناشئة عن السفه والأنانية فى حين أن الدين ينشأ عن الحكمة والعقل » . وهو يميز بينهما كذلك فى سنى حياته الأخيرة عند محاربته الإلحاد : « تقول إن الدين أفضى إلى آلاف الجرائم . أجدر بك أن تقول إنها الخرافة التى تسود على عالمنا الكئيب . إنها ألد أعداء العبادة الطاهرة المفروضة نحو الكائن الأسمى » .

إذا كان الإنسان لا يريد أن يعترف إلا بإله خالق ، وإذا كان لا يريد أن يعتبر هذا الإله إلا بمثابة كائن لانهاية لسلطته ولا حد لنفوذه وسلطانه ، وألا يرى فى المخلوقات إلا مجرد آلات جميلة مدهشة ، فهذا غير كاف لأن يكون هذا الإنسان ديناً ، « أما الذى يفكر فى أن الله قد تفضل بوضع علاقة بينه وبين الناس ، وأنه خلقهم أحراراً يعملون الخير والشر ، وأنه منحهم كل هذا العقل وهو غريزة الرجل التى يقوم عليها الناموس الطبيعى ، فذلكم هو بغير شك ، من عنده دين » .

ولقد أنكر فولتير العناية الإلهية الخاصة ، فكان لا يمكنه أن يعترف بالضراعة والصلاة ، فلله مقاصد ، وهى أبدية . فالضراعة إليه تكون لطلب شىء مطابق لإرادته الثابتة ، أو

التماس شيء يتعارض مع تلك الإرادة . فى الحالة الأولى تكون الضراعة غير مجدية ؛ وفى الحالة الثانية كانت تجديفاً . ومن ناحية أخرى ، إن الله لا يمكن أن يعمل شيئاً يتنافى مع العدل ، فليس ثمة ما يدعو إلى مطالبته بما هو عدل لأنه سينفذه بغير حاجة إلى طلبه . وإذا طلب منه ما هو ظلم كان هذا الطلب إهانة لعدالته وتجديفاً . وإذن فالضراعة للكائن الأسمى تعد حطاً من مكانته وتنزله إلى طبقة السيد المتكبر الظالم . ولذلك فإن الضراعة الحقيقية المجدية هى فى الطاعة والخضوع . وإلى جانب ذلك فإن فولتير يرى أن الطاعة وحدها لا تكفى ويقول فى المعجم الفلسفى : « إننى أشكره على السراء والضراء » .

وهكذا كان فولتير يحارب الكاثوليكية . فهو أول من قال بأن مسائل الكونيات والغيبيات تتجاوز حد الإدراك البشرى وكان — إذا ما اعترضته مسألة فى هذا الصدد — يعترف بكل تواضع بعجزه وضعفه .

ويقول فولتير : إن العرب ، عندما فتحوا أسبانيا ، لم يرغموا أحداً على اعتناق الدين الإسلامى » والرهبان اليونان — بعد فتح الآستانة — ظلوا يتمتعون بكثير من الأوقاف الخيرية . ومثل هذا التساهل كان متبعاً عند اليهود . لقد كانت مذاهبهم متعددة وشيعهم مختلفة متباينة ، والنزاع بينها أشد وقعاً من النزاع القائم

بين البروتستانت والكاثوليك . ومع ذلك لم يسمع أن شيعة طالبت بإفناء شيعة أخرى ، والشعب اليهودى ، على الرغم من تطيره ، يساوى بين هذه الشيع بحرية تامة .

وعند الرومان لم يضطهد لوكريس لأنه تغنى بمذهب أبيقور ووضعه نظماً . ولم يضطهد سقراط لأنه قال بأن المرء لن يشعر بأى ألم بعد الموت ، وإن بلين لم يقتل لأنه قال فى مطلع كتابه « التاريخ الطبيعى » بالإلحاد . فقد قال أعضاء مجلس الشيوخ إن هذا القول من شأن الآلهة ومن حقها أن تنتقم لنفسها متى شاءت ممن أهانها . أما الديانات الأخرى فروما لم تتسامح بها فحسب ، ولكنها قبلتها واقتبست عنها ، وظل المسيحيون فى عهدهم زمناً طويلا يتمتعون بما يتمتع به الوثنيون . وكانت لهم كنائس غنية ، وكانوا يعقدون مجامعهم الأسقفية ويقومون بأعباء دولية . ولقد حماهم ديوكليس فى بادئ الأمر وألحق الكثيرين ببلاطه . فإذا كانوا قد اضطهدوا بعد ذلك فلأنهم كانوا يطعنون بالعقائد القومية ومعاهد الإمبراطورية . إن روما لم تضطهد ، فى المسيحيين ، مذهباً دينياً ، ولكن عنصراً من العناصر المشاغبة التى تهدد الإمبراطورية .

أما اليونان ، فإن فولتير لا يقارنهم بالمسيحيين . إنه يعترف بأن فلاسفتهم المعارضين لم يلقوا مثل هذا التساهل ؛ ويضرب

مثلا بأناكساغوراس الذى اضطر إلى النفى لأنه جاهر بقوله إن أبولون لم يقد سيارة الشمس ، وأريسطوطاليس الذى اتهمه الكهنة بالإلحاد ؛ وقد استهجن الحكم الصادر على سقراط وسخفه ، ولكنه عندما يقارن بين اليونانيين والمسيحيين فإنه يتغاضى عن الكلام عن أريسطوطاليس وأناكساغوراس ، ويؤكد أن الأبيقوريين كانوا يستطيعون أن ينكروا الله ويقولوا بمادية الروح ، وإن مختلف المذاهب الفلسفية كانت فى حل لتعليم مذاهبها بحرية بغير ما خوف ولا وجل . أما عن موت سقراط فهو : « الفيلسوف الوحيد الذى قتله اليونان لآرائه وأفكاره » ؛ ولذا فهو يعنى بسرد جميع الظروف المخففة ويقول بأن هذا الحكم جاء نتيجة دسيسة ، ولم يلبث اليونانيون أن استنكروه وكفروا عنه فأوقعوا العقاب الصارم بمليلوس وشيدوا معبداً لضحيتهم ، وبذلك كان موت هذا الفيلسوف تمجيداً للفلسفة . ثم ما هو الفرق بين الموت والتعذيب الذى أوقعته الكنيسة بآلاف الهراطقة والمنشقين عليها ! لم تكن فى العصور القديمة استجوابات عادية أو غير عادية ولا محارق ولا عجلات يشد إليها المحكوم عليهم لتمزق أعضاؤهم . فقد بلغ سقراط من العمر أرذله واحتضر ببطء وسكينة فى وسط أصدقائه وهو يشكر الله وبذلك دلل على خلود الروح .

أما فلسفة فولتير الاجتماعية فكانت تدور حول التدليل على أن الرجل حيوان اجتماعى ، وأن الألفة غريزة جوهرية فى الجنس البشرى كما هى جوهرية فى بعض الأجناس الحيوانية مع الفارق فى أن العقل عند الإنسان يعززها ويقويها .

أما فلسفته السياسية فبعيدة المدى . لقد كان ملكياً كغيره من معاصريه الفرنسيين . ومع ذلك لم يظهر أى عداء للنظام الجمهورى وإن كان يعارضه لثلاثة أسباب : أحدها أن الجمهورية تسلم بوجود جماعات وإن كان أفرادها لا يتطاحنون فى حروب أهلية إلا أنهم لا يكفون عن تهديد الوحدة القومية . وإلى جانب ذلك فإنها لا تستقيم ولا تستقر إلا فى بلد ضيق وأمة فقيرة . كما أن «الرجال قل أن يكونوا أهلا لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم » .

وكان فولتير يميل كثيراً للنظرية الأولى ، وينقض الثانية فى كتابه « الأفكار الفلسفية » ويعارض فيها روسو الذى نادى بها ، ويضرب مثلا جمهوريات البندقية ، وآثينا ، وبصفة خاصة ، روما من عهد شيبيون إلى عهد قيصر . أما الثالثة فإنه يمتدح الديموقراطيات التى تستقر وتتوطد مع الزمن . لذلك كان فولتير يندد بالبرلمانات المعاصرة له ولا يرى فيها إلا مجندين للإسراف ، وطلاب الامتيازات ، وأعداء الإصلاحات

التى يطالب بها الفلاسفة سواء فى التشريع أو فى الاقتصاد الاجتماعى .

ومع ذلك كله كان فولتير « رسول التسامح » . وقد أفاد ذلك البروتستانت . فالحقوق التى كان يطالب بها من أجلهم كانت مماثلة لما يتمتع به الكاثوليك فى إنجلترا . وكان فى كثير من مؤلفاته يطالب بالمساواة فى المعاملة بين جميع المذاهب ، ويحبذ قانون حرية الضمير الذى أصدره وليم بن فى آخر القرن السابع عشر فى بنسلفانيا .

وقد تناول فولتير مسألة المساواة فى الثروة . فكان رأيه فيها أن كل محاولة لفرضها ضرب من الوهم .

قال باسكال : « لا شك فى أن المساواة فى الثروة أمر عادل » فعارضه فولتير بقوله : « إن المساواة فى الثروة أمر غير عادل . فليس من العدالة ، بعد أن تقررت الحصص ، أن يطالبنى أجير ، جئت به ليساعدنى فى جمع الحصاد ، بما يتساوى مع ما يخصنى فيه » .

ولم تكن نظرة فولتير فى المساواة بين الطبقات تختلف عن نظرته فى المساواة فى الثروة . فكان لا يسلم بأن « تلك المساواة المستحيلة التى لا يمكن تصديقها بين الخادم والسيد ، والعامل والمشرع ، والمدافع عن حق والقاضى » من الأمور التى يمكن

تحقيقها . إن المساواة التى كانت تتمتع بها سويسرا وتضرب بها الأمثال ، لا تقوم فى الواقع إلا على خضوع جميع المواطنين للشرائع التى تحمى الضعيف ضد تصرفات القوى . « إن من يقولون بأن الرجال متساوون . . . يخطئون كثيراً إذا هم اعتقدوا أن الرجال يجب أن يتساووا فى العمل الذى يؤدونه ما داموا غير متساوين فى الكفاءة والمواهب » .

وقد طالب فولتير ببعض الإصلاحات، أهمها من الناحية التشريعية ، سواء فى الهيئة القضائية أو فى صلب القوانين ، وفى التشريع الجنائى ، وحق الاستيلاء ، والحكم بالإعدام ، والتعذيب ، وتطبيق العقوبة بما يتناسب مع الجريمة .

وصفوة القول يمكن تلخيص فلسفة فولتير بعبارة بسيطة : لقد أصلح تهذيب الإدراك البشرى بأن عارض نظرية المطلق بنظرية النسبية ، واستبدل فى عالم الفلسفة وفروعها ، نظرية الاعتقاد واليقين بنظرية النقد .

تأثير ڤولتير

ليس شك فى تأثير فولتير على عصره تأثيراً كبيراً وإن كان من غير الميسور تحديد مداه بدقة . وليس شك أيضاً فى أن فولتير كان يتأثر بدوره من إيحاءات عصره وإن كان تأثيره فى كثير من الأمور هو تأثير الوسيط الذى يضع قوة شهواته المعدية ، وقوة نبوغه الساحر ، فى خدمة الأفكار التى يخدمها دون أن يخلقها . ومن ثم يتعذر التمييز بين عمله الجماعى وبين جهوده الفردية الأخرى ، لاتجاة العاملين فى طريق واحد . لقد كان يجمع الأذهان ، ويسير جميع القوات نحو نقطة واحدة . كان يهذب ، ويوفق بين الأمانى التى يشترك معاصروه فيها معه . فكان لا يمكن الفصل فيما إذا كان هو قائد جيش التقدم والرقى أو أنه مجرد قارع الطبل فى هذا الجيش .

إن تاريخ الأفكار وتكوينها وطريقة نشرها فى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر لم يتم استيفاؤه للآن . ولم تتم كذلك دراسة العلاقة بين الوقائع السياسية والاجتماعية . وبين الوقائع الأخلاقية والأدبية ، ولذلك يجب النظر عن كثب فى تكوين ونمو

كثير من الأفراد سواء كانوا من الممتازين أو المتوسطين ، أو كانوا من المشاهير أو الغامضين . على أنه لم يتم إلى الآن جمع عدد كاف من الملاحظات من هذا النوع ليمكن استخلاص نتائج عامة . ومع ذلك فإن ما يمكن قوله هو أن فولتير كان بمثابة الغذاء العقلى لكثير من الرجال خلال عدة سلالات متعاقبة ، وأنه اشترك فى عدد لا يحصى من الضمائر . وفى السلالة الأخيرة من القرن الثامن عشر لم ينج فرد من تأثيره حتى إن بعض المسيحيين حاربوه بنفس السلاح الذى أخذوه عنه .

إن فولتير يؤثر كفنان وكفيلسوف أحياناً بصفة مشتركة وأحياناً منفصلين . ففى عالم الأدب نراه يؤثر بوجه عام بذوقه ولسانه كمهيج أولا وكملهم ثم كمحافظ وأمين على المبادئ الكلاسيكية . فالعقول التى يكونها تتمتع بذوق سليم ، وتعبر بعبارات واضحة جافة ، وتحافظ على صحة البيان وبلاغة العبارة . إن أتباع فولتير يثورون على أسلوب كأساوب شاتوبريان ويحتقرون الكتاب الرومانتيك . والقرن التاسع عشر حافل بهؤلاء الفولتيريين وبصفة خاصة فى الجامعة والقضاء .

أما فى عالم الأدب المسرحى فإن معاصريه يضعونه فى مصاف راسين وكورنيل . وسيظل فولتير السيد الآمر فى الشعر الرقيق والغزل . وأما فى التاريخ فإن تأثيره قد تلألأ وتجاوز فرنسا . فقد

ألف مدرسة للمؤرخين الفلاسفة الذين يعاب عليهم بأنهم ضحوا بالوقائع فى سبيل التفكير ، كما ضحوا بأبحاث النقد فى سبيل الحزبية .

وقد اقتبسوا عنه قصصه الفلسفية فى القرن الثامن عشر . أما فى القرن التاسع عشر فقد نقل شاتوبريان وجورج ساند وبلزاك القصة إلى ميدان آخر بعيد عن ميدان كانديد .

وقد تجلى تأثير فولتير بعظمة فى رسائل الهجاء والصحافة فقد كان أستاذاً فى فن السخرية اللاذعة . أخذوا عنه فن المراوغة ؛ وطريقة تحليل المواضيع الهامة المعقدة وتعليلها بما يجعلها بسيطة هادئة ؛ وكيف تترجم رسائل الخصوم وتحول إلى عروض سخيفة لا تحتاج إلى نفى ؛ وكيف يستطيع الكاتب أن يعيد ويكرر ما قال وما كتب بأوضاع مختلفة شيقة ورموز غريبة لإقناع القارئ دون أن يعتريه سأم أو يتطرق إليه ملل . لقد كان فناناً عظيماً فى مؤلفات خلت من عبارات الفن ؛ كما كان رائداً لكثير من كتاب القرن التاسع عشر والجمهورية الثالثة ؛ وعند ما انتقل أناتول فرنس من كتابة القصة إلى النقد الاجتماعى تجلت ميوله الفولتيرية وبدت أضعاف ما كانت عليه .

وإذا استثنينا أدب المناقشة والمناظرة أمكننا القول بأن فولتير

كان أستاذاً بارعاً فى علم الإنشاء واللغة والبلاغة لكثير من الكتاب الفرنسيين الذين لم يتذوقوا الأدب الرومانتيكى ولم يجاروه .

ولقد تمكن فولتير من التأثير على كثير من العقول وإبعادها عن المسيحية وإن كان لم يفلح فى أن ينفث فيهم ما فى صدره من حقد عليها ، حتى لقد وجد بين مريديه نساء نبذن الدين وبعدن عنه أميالا .

وقد ساروا خلفه عند ما نادى بمبدأ الملكية المطلقة بشرط أن تقف نفسها على خدمة البلاد والأمة ؛ وعندما جاهر بإسراف العدالة ؛ وأسرع إلى إغاثة المظلومين ونصرة الضحايا ؛ وعندما حارب إسراف الإدارة وأشار إلى الإصلاحات المفيدة ؛ وعندما أعلن كراهيته للحرب وطالب بملكية تحب السلم وتعمل فى سبيل الرخاء العام وتنظيم التجارة والزراعة .

ومجمل القول أن فولتير قد أثر على عصره بتنمية روح النقد فى الجماهير . فقد استعرض أمامها جميع المسائل الإدارية والحكومية ، والمواضيع السياسية والدينية والقضائية والاقتصادية ؛ وعلمها كيف يجب أن تعتبر نفسها مختصة فى جميع المواد فجعل من الرأى العام قوة هدامة لما لا يرتضيه .

وكف تأثير فولتير عندما اندلعت نار الثورة الفرنسية ، فقد

سارت الحوادث بسرعة فائقة حتى لقد تجاوزت أفكاره وسبقتها فقد كان الوقت للحماس والشهوة والمشاعر لا للتفكير والتأمل . ثم جاء عهد القنصلية والإمبراطورية فعاد نشاط الروح الفولتيرى . ثم جاء عهد الملكية بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ فعاد تأثير فولتير وعمت أفكاره ، وانتشرت مؤلفاته وأقبل الناس على قراءتها .

ولم يكن تأثير فولتير فى الخارج بأقل من تأثيره فى فرنسا . فقد كان صداه يتردد فى أسبانيا والبورتغال ، وتجاوزهما إلى ألمانيا ، وبلغ أشده فى إيطاليا حيث كانت الحاجة ماسة إلى الإصلاحات الاجتماعية ، وإلى الحرية ، وإلى الوحدة . أما إنجلترا فإن الفكرة الفلسفية كانت متوطنة فيها قبل أن يبدأ فولتير . فإذا كانت لم تأخذ عنه شيئاً ولم تسايره فى شىء فإنها قد تتبعته فى جميع أطواره وحكمت على أعماله واعترفت بنبوغه العظيم وعبقريته الفذة .

المساواة

بماذا يدين كلب لكلب ، وجواد لجواد ؟ لا شيء ، فلا يوجد حيوان يخضع لحيوان مثله ؛ والرجل الذى مسه شعاع من النور الإلهى يسمى «العقل» ، ماذا عساها أن تكون ثمرته ؟ أن يكون عبداً فى جميع أنحاء الأرض تقريباً .

إذا كانت هذه الأرض كما كان يجب أن تكون عليه ، أى إذا وجد الرجل فى كل مكان منها رزقاً هيناً مضموناً ، ومناخاً ملائماً لطبيعته ، لكان من المستحيل أن يستعبد رجل رجلا آخر . ولو أن هذا الكون امتلأ بثمار صحية ، والهواء الذى يشترك فى كياننا لم يجلب علينا الأمراض والموت ؛ ولو أن الرجل لم يعد فى حاجة إلى مأوى ولا فراش غير ما ترتضيه الظباء ، والتيوس البرية : إذن لما وجد أمثال جنجيس خان وتيمورلنك أتباعاً من الخدم غير أبنائهم ليساعدوهم على شيخوختهم بشرف ونزاهة .

فى مثل هذه الحالة التى يتمتع بها ذوات الأربع ، والطيور والزواحف ، يستطيع الرجل أن يتمتع بمثل سعادتها ؛ وإذ ذاك

تصبح السيادة ضرباً من الخيال ، ومخافة يصعب تصديقها ولا يفكر فيها إنسان : إذ ما هى حاجتك إلى الخدم ما دمت لا تحتاج لأية خدمة ؟

وإذا مر بذهن بعض ذوى الرؤوس المستبدة والأيادى الغليظة الغاشمة ، أن يستعبدوا جاراً أضعف منهم ، لكان الأمر مستحيلا : لأن المضطهد يصبح بعيداً على مدى مئات من الفراسخ قبل أن تناله يد المضطهد .

فلو انعدمت الحاجة عند الرجال لأصبحوا حتماً متساوين . إن البؤس الملازم لجنسنا ، يُخضع رجلا لرجل آخر ؛ فعدم المساواة ليس هو الشقاء الفعلى ، وإنما التبعية . ولا يهم كثيراً أن يلقب هذا الرجل بصاحب العظمة وذلك بصاحب القداسة ؛ إنما الصعوبة فى خدمة هذا أو ذاك .

زرعت أسرة كثيرة الأفراد أرضاً طيبة ؛ وتوجد لأسرتين مجاورتين حقول جرداء قاحلة : فواجب الأسرتين الفقيرتين أن تخدما الأسرة الموسرة ، أو تفتكان بها ، وهذا يتم بغير عناء . فإحدى الأسرتين المعوزتين تعرض خدماتها على الموسرة مقابل ما تحتاج إليه من خبز ؛ والأخرى تهاجمها ولكنها تنهزم فالأسرة الخادمة هى منشأ وجود الخدم واليد العاملة ؛ والأسرة المهزومة هى منشأ وجود العبيد الأرقاء .

إنه لمن المستحيل فى عالمنا التعس ، أن يعيش الرجال فى مجتمع دون أن ينقسموا إلى طبقتين ؛ إحداهما طبقة الطغاة ، والأخرى طبقة المضطهدين . وهاتان الطبقتان تتشعبان إلى ألف ، ولهذه الألف أيضاً ألوان مختلفة وميول متباينة .

على أن جميع المضطهدين ليسوا جميعاً تعساء . فأغلبهم ولدوا فى هذه الحالة ، والعمل المستمر يحول بينهم وبين الشعور بحالتهم كثيراً ؛ ولكنهم عندما يشعرون بها ، تتجلى إذ ذاك الحروب ، كحرب حزب الشعب مع حزب أعضاء الشيوخ فى روما ؛ وحرب الفلاحين فى ألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا . إن جميع هذه الحروب تنتهى إن عاجلا وإن آجلا باستعباد الشعب ، لأن الأقوياء ، يملكون المال ، والمال سيد كل شىء فى الدولة : إنى أقول فى الدولة ، لأن الوضع يختلف من أمة إلى أمة . إن الأمة التى تحسن استعمال الحديد تخضع الأمة التى تملك ذهباً أوفر وشجاعة أدنى .

كل رجل يشعر منذ ولادته بميل حاد إلى السيادة والثروة والملذات ، ويميل كثيراً إلى الكسل ! وإذن فكل رجل يود أن يتمتع بمال الغير ونسائهم وبناتهم ، وأن يكون السيد ، وأن يستعبدهم ويخضعهم لنزواته ، وألا يعمل شيئاً أو على الأقل لا يعمل إلا أمتع الأشياء وأحبها . فأنت ترى جيداً أنه لمن

المستحيل — مع وجود هذه النيات والمقاصد — أن يتساوى الرجال ، وأنه لمن المستحيل ألا يشعر مبشران أو معلما لاهوت بالغيرة من بعضهما

إن الجنس البشرى بحالته الراهنة ، لا يمكن أن يستقيم ويستمر ، ما لم يوجد فيه عدد وفير لا يحصى من الرجال النافعين لا يمتلكون شيئاً على الإطلاق ؛ فليس شك فى أن رجلا ميسوراً لا يهجر أرضه ليزرع أرضك ؛ وإذا كنت فى حاجة إلى حذاء فليس السيد هو الذى يصنعه لك . فالمساواة ، إذن ، هى أحب الأشياء وأقربها إلى الطبيعة ، ولكنها فى نفس الوقت أبعدها خيالا .

ولما كان الرجال يغالون فى كل شىء متى استطاعوا ، فإنهم قد تجاوزوا الحد فى عدم المساواة . لقد زعموا فى كثير من البلاد أنه من غير المصرح به لأى مواطن أن يغادر الناحية التى شاءت الصدفة أن يولد فيها ؛ ومعنى هذا القانون فى الظاهر : « هذه المدينة فاسدة ، والحكم فيها سىء إلى حد أننا نحظر على كل فرد مغادرتها ، لئلا يهجرها كل من فيها » . خير أن تعملوا ما هو أفضل فتهيئوا لجميع رعاياكم وسائل البقاء عندكم مع إغراء الأجانب ليتزحوا إليكم .

إن لكل رجل ، فى خبيئة نفسه ، الحق فى أن يشعر بأنه

يتساوى تماماً مع الرجال الآخرين : ولكن لا يترتب على ذلك أن طاهى الكردينال يجب أن يأمر سيده بأن يعد له الطعام ؛ ولكن فى مكنة الطاهى أن يقول : « إننى رجل كسيدى ؛ لقد ولدت مثله وأنا أبكى ؛ وسيموت مثلى فى نفس الكروب وتقام لنا نفس الطقوس الدينية . إننا نؤدى نفس الوظائف الحيوانية . فإذا استولى الترك على روما ، وكنت إذ ذاك كردينالا وسيدى طاهياً ، فإننى ألحقه بخدمتى » . هذا التعليل بأكمله معقول وعادل ؛ ولكن إلى أن يستولى سلطان تركيا على روما ، فعلى الطاهى أن يؤدى واجبه ، وإلا كان المجتمع البشرى بأسره فاسداً .

وبالنسبة لرجل ليس طاهياً ، ولا كردينالا ، ولا قائماً بأى عبء من أعباء الدولة ، أو بالنسبة لفرد ما ، غير مقيد بشيء ، ولكنه يبدى استياءه لأنه يقابل فى كل مكان بالازدراء أو الإشفاق ، مع أنه يرى أن غيره ممن يلقبون بلقب « مونسنيور » لا يزيدون عنه علماً ، ولا عقلا ، ولا فضيلة ، ويعتريه السأم من الانتظار أمام أبوابهم ، أمثال هؤلاء إذا سألوا عما يجب أن يستقر عليه عزمهم أجبتهم : أن يرحلوا .

(عن المعجم الفلسفى)

شرير

لقد طالما صاحوا بأن الطبيعة شريرة فاسدة ، وأن الرجل شرير ولد من الشيطان . ليس أشد خطأ من ذلك : فأنت، يا صديقى ، الذى يعظنى بأن جميع الناس ولدوا فاسدين ، تنبهنى إلى أنك ولدت كذلك ، وأنه يجب على أن أحترس منك كما أحترس من ثعلب أو من تمساح — ستقول لى ، أوه أبداً ، إن أخلاق قد تحسنت ، ولست هرطوقياً ولا كافراً ، ويمكنك أن تثق بى — ولكن بقية الجنس البشرى ، أولئك الهراطقة أو من تسميهم كفرة ، سيصبح إذن خليطاً من الوحوش الضارية ، وفى كل مرة تتحدث فيها إلى أحد اللوثريين أو الكفار ، يجب أن تكون واثقاً من أنه لن يسلبك أو يقتلك ؛ لأنهم من أبناء الشيطان ؛ فقد ولدوا أشراراً : فأحدهم لم يتحسن والآخر فاسد . إنه لأجدر وأحب أن تقول للرجال : « لقد خلقتم جميعاً طيبين ، فانظروا إلى أى حد يصبح الأمر فظيعاً لو أفسدتم طهر كيانكم » . ولقد كان يجب أن يعامل الجنس البشرى مجتمعاً كما يعامل جميع الرجال منفردين . فإذا أساء

أحد الرهبان التصرف ، يقال له : « أو يمكن أن تدنس مكانة الكهنوت ؟ » . يجب أن يذكر القاضى بأنه يتشرف باعتباره مستشاراً للملك ، وعليه أن يكون قدوة . ويقال للجندى لتشجيعه : « تذكر بأنك من فرقة الشمبانى » . وإنه يجب أن يقال لكل فرد : « تذكر مكانتك كرجل » .

والواقع ، أنه على الرغم من كل شيء ، فإن المرجع واحد : إذ مامعنى تلك العبارة التى تتردد فى جميع الأمم « عد إلى نفسك ؟ » فإذا كنت قد ولدت ابناً للشيطان ، وإذا كانت سلالتك مجرمة ، وإذا كان دمك من عصارة شراب جهنمى ، فتلك العبارة « عد إلى نفسك » تعنى : استشر ، اتبع طبيعتك الشيطانية ، كن أفاقاً ، ومنافقاً ، وسفاحاً ، فتلك شريعة ابنك .

إن الرجل ليس شريراً ؛ إنه يصبح شريراً كما يصبح مريضاً ؛ فيقترب منه الأطباء ويقولون له : « لقد ولدت مريضاً » . إنه واثق من أن هؤلاء الأطباء ، مهما قالوا ومهما فعلوا ، فإنهم لن يشفوه ما لم يكن مرضه مرتبطاً بطبيعته ؛ وهؤلاء المرشدون مرضى من جانبهم .

اجمعوا أطفال الكون جميعاً ، فإنكم لن تجدوا فيهم غير الطهر ، والوداعة ، والخوف . فلو أنهم ولدوا أشراراً ، مؤذين ،

قساة ، فلا بد أن يبدر منهم ما يدل على ذلك ، كالأفاعى الصغيرة فهى تحاول أن تلدغ ، والنمرة الصغار تحاول أن تمزق . ولكن الطبيعة لم تعط الرجل سلاحاً أكثر إيذاء مما أعطته للحمام والأرانب ، فلا يمكن ، والحالة هذه ، أن تكون قد أعطتهم غريزة تحملهم على الهدم .

فالرجل إذن لم يولد شريراً . فلماذا يوجد كثيرون مصابين بوباء الشر ؟ ذلك لأن من يرأسونهم قد اعتراهم المرض فأصابوا بقية الرجال بعدواه ؛ كالمرأة التى أصيبت بالمرض الذى نقله كريستوف كولومب من أمريكا ، فنفثت سمه فى جميع أنحاء أوربا . إن أول طامع طموح هو الذى أفسد الأرض .

قد تقول لى إن هذا الوحش الأول قد نشر جرثومة الكبرياء ، والسلب ، والتزوير ، والقسوة الموجودة فى جميع الرجال . إننى أعترف ، بوجه عام ، أن أغلب إخواننا يمكنهم أن يصابوا بجميع هذه الصفات ؛ ولكن هل جميع الناس مصابون بالحمى العفنة ، والحصوة ، لأن جميع الناس معرضون لها ؟

توجد أمم بأسرها لا تعرف الشر : إن الفيلادلفيين والبانيانيين لم يقتلوا أحداً قط ؛ والصينيين ، وشعوب التونكان ، ولاو ، وسيام ، واليابان بالذات ، لم يعرفوا الحرب منذ نيف ومائة عام . وتكاد أن تقع فيها ، فى كل عشرة أعوام ، إحدى تلك

الجرائم التي تدهش لها الطبيعة البشرية فى بلاد كروما ، والبندقية ، وباريس ، ولندرا ، وأمستردام ، ومع ذلك فهى بلاد يطغى الطمع فيها وهو رأس الجرائم .

فإذا كان من المحتم أن يكون الرجال أشراراً ، وإذا كانوا كلهم يولدون خاضعين لكائن شرير بقدر ما هو شقى ، يريد أن ينتقم مما هو فيه من عذاب فينفث فيهم كل ضغينته وحفيظته ، لوجد الأزواج فى كل صباح مقتولين من زوجاتهم ، والآباء من أبنائهم ، كما ترى فى كل فجر دجاجاً خنقها دلق جاء ليمتص دماءها .

فإذا وجد مليار من الرجال على الأرض فهذا العدد كبير ؛ وهذا العدد يعطى خمسمائة مليون امرأة تحيك ، وتخيط ، وتطعم صغارها ، وتدبر المنزل أو الكوخ ، وتثرثر قليلا فى حق الجيران . إننى لا أرى شراً كبيراً يمكن أن يقع من هاته البريئات على الأرض . يوجد فى هذا العدد من سكان الكون ، مائتا مليون طفل على الأقل . وهؤلاء لا يقتلون ولا يسلبون ، ونحو هذا العدد من الشيوخ والمرضى الذين لا حول لهم ولا قوة . فيبقى على الأكثر مائة مليون شاب أشداء أهل لارتكاب الجريمة . ومن هذه المائة مليون يوجد تسعون يعملون باستمرار فى الأرض ويحملونها ، بعملهم الجبار ، على تقديم المأكل والملبس ؛ وهؤلاء

لا يجدون الوقت لعمل الشر .

أما العشرة مليون الباقية ، فهى تشمل الكسالى ، والمحظوظين الذين يطلبون المتعة بهدوء ، والموهوبين الذين يهتمون بمهنتهم ، والقضاة ، والكهنة وهم يقضون حيـــاة طاهرة ، أو قلما يتظاهرون بذلك . فلا يبقى من الأشقياء الفعليين إلا بعض رجال السياسة ، سواء من المحترفين أو من المنتظمين . وهؤلاء يريدون دائماً أن يعكروا صفو العالم ، وبضعة آلاف من المتشردين الذين يؤجرون خدماتهم لهؤلاء السياسيين . ومع ذلك فإنه لا يستعمل مليون من هؤلاء الوحوش الكاسرة فى وقت واحد . وإنى أضمن هذا العدد قطاع الطرق . وإذن ، يوجد ، على أكثر تقدير ، وفى أحرج الأوقات ، رجل فى الألف يمكن أن يقال بأنه شرير : وإن لم يكن كذلك دائماً .

إذن فالشر يوجد فى الأرض بدرجة أقل مما يقولون أو يتوهمون . لا شك فى أن ما يوجد كثير جداً . فنحن نشاهد هذا الشقاء ، وتلك الجرائم المروعة ، ولكن لذة الشكوى وحب المغالاة كبيران ، حتى إن أقل خدش يجعلك تصيح بأن الأرض امتلأت بالدم . فإذا خُدعت حكمت بأن جميع الرجال ينكثون العهد . إن الرجل السويداوى الذى يصاب بمظلمة ، يرى أن الكون غاص بالهالكين ، وكذلك الشاب الشهوانى الذى يتناول

طعام العشاء بصحبة خليلته ، بعد مغادرة الأوبرا ، فإنه لا يتصور أن هناك بؤساء معوزين .

(عن المعجم الفلسفى)

الاستبداد

الطاغية هو الحاكم الذى لا يعرف من القوانين إلا هواه ، ويغتصب مال أتباعه ثم يحشدهم ليستولى على مال الجيران . مثل هؤلاء الطغاة لا يوجد فى أوربا .

يوجد استبداد الفرد ، واستبداد الجماعة ، وهذا النوع الأخير هو استبداد جسم على حقوق الأجسام الأخرى ، وهو يستبد بفضل الشرائع التى أفسدها بنفسه . مثل هذا النوع من الطغاة لا يوجد كذلك فى أوربا .

فى ظل أى استبداد تفضل أن تعيش ؟ لا هذا ولا ذاك ، ولكن إذا كان لا بد من الاختيار ، فإن كراهيتى لاستبداد الفرد وتعسفه تكون أقل من كراهيتى لاستبداد المجموع . فالمستبد الفرد لا يخلو من أوقات يكون فيها طيباً . أما مجتمع من الطغاة فليس لديه مثل هذا الوقت إطلاقاً .

وإذا ألحق بى الطاغية الفرد ظلماً ، فإننى أستطيع أن أنزع سلاحه بواسطة خليلته ، أو الكاهن الذى يستمع اعترافه ، أو خادمه . أما جماعة من الطغاة الوقورين فإن جميع وجوه الإغراء

لا تفيد معهم . فإن لم تكن هذه الجماعة ظالمة فهى على الأقل قاسية ، وفى كلتا الحالين لا تمنح حسناتها إطلاقاً .

لو لم يكن أمامى غير طاغية ، فما على إلا أن ألتصق بالحائط عند ما أراه مقبلا ، أو أنحنى أمامه باحترام ، أو أعفر جبينى فى التراب تبعاً للعادة فى البلد ؛ أما إذا كانت هناك جماعة مؤلفة من مائة مستبد ، فإننى معرض لأن أكرر هذه المراسيم مائة مرة فى اليوم ، وهذا ممل جدا مع الزمن ، لا سيما إذا ضعفت الساقان . وإذا كانت لى مزرعة مجاورة لأحد سادتنا فإننى أداس بالأقدام ؛ وإذا ترافعت ضد قريب لأحد أقرباء سيد من سادتنا ، فإنه يلحق بى الخراب . فكيف العمل ؟ إننى أخشى أن يكون مآل الإنسان فى هذه الحياة أن يقوم مقام المطرقة أو السندان . فطوبى لمن ينجو ويسلم من هذا الاختبار .

(عن المعجم الفلسفى)

دهليز الإغراء

كان الملك نابوسان من خيرة أمراء آسيا وأنبلهم خلقاً . وكان يخدع ويسلب دائماً : فكانت كنوزه فى متناول من يسرقها . وكان كبير صيارفة جزيرة سرنديب يعطى هذا المثل دائماً فيتبعه الآخرون بإخلاص . وكان الملك يعرف ذلك حتى لقد استبدل أمين خزانته مراراً بغير طائل . وهكذا كان دخل الملك يقسم إلى شطرين غير متعادلين . يؤول الشطر الأول إلى الملك دائماً ويبقى الشطر الأكبر من حظ المديرين .

وفاتح نابوسان صديقه الحكيم زاديج وكشف له عن ألمه وحزنه . وقال له : « أنت الملم بكثير من الأعمال الجليلة الجميلة ، هلا هديتنى إلى وسيلة أظفر بها بأمين لخزانتى لا يسرقنى ؟ — فأجابه زاديج : يقيناً . إننى أعرف وسيلة لا تخطئ وهى تمكننى من أن أهيئ لك رجلا طاهر اليدين نزيهاً » . فسر الملك وعانقه وسأله عما عساه أن يفعل . فقال زاديج : « خير وسيلة هى أن تدعو إلى الرقص جميع من يرشحون أنفسهم لمنصب أمين الخزانة ، ومن كان أسرعهم رقصاً وأرشقهم حركة ، فهو حتماً أشرف رجل فيهم . — فقال الملك : أنت تمزح ، فهذه طريقة مضحكة لاختيار محصل لأموالى ! ماهذا ؟!

تزعم أن من يحسن الرقص ويجيد قفزة القط يكون أشرف المحصلين وأمهرهم ! — فاستطرد زاديج : « أنا لا أضمن لك أنه سيكون أمهرهم ولكننى أؤكد لك بأنه سيكون حتماً أشرفهم » . وكان زاديج يتكلم بلهجة الواثق حتى لقد اعتقد الملك بأنه يحمل سرًّا خارقاً للطبيعة لاكتشاف المحصلين . فقال له زاديج : « أنا لا أرتاح إلى ما هو خارق للطبيعة . فإذا تفضلت جلالتك وتركتنى أقوم بالاختبار الذى أعرضه ، فلسوف تقتنع بأن سرى من أبسط الأسرار وأسهلها » .

وعند ما سمع نابوسان الملك أن هذا السر بسيط ، كانت دهشته أعظم مما لو قيل له أن فى الأمر عجيبة . وقال له : « حسبك وافعل ما تريد . — فقال زاديج : دعنى أفعل . ولسوف تربح من هذا الاختبار أكثر مما تظن » . وفى نفس اليوم أعلن باسم الملك ، أن من تطمح نفسه إلى شغل منصب محصل نقود صاحب الجلالة نابوسان الكريم ، فعليه أن يحضر بثياب حريرية رفيعة إلى قاعة الانتظار فى القصر الملكى فى اليوم الأول من الشهر الذى يستوى فيه القمر فى برج التمساح . فتقدم أربعة وثمانون . وكانت الأوتار قد أعدت فى القاعة المجاورة وجئ بجميع ما يلزم لحفلة الرقص . على أن باب هذه القاعة ظل موصداً ، فكان لا بد ، للوصول إليها ، من المرور

بدهليز صغير مظلم . وجاء الحاجب وشرع فى إدخال المرشحين واحداً إثر واحد من الدهليز حيث كان يترك وحيداً بضع دقائق . وكان الملك ، بعد إذ وقف على السر ، قد عرض جميع كنوزه فى ذلك الدهليز . وعندما وصل جميع المرشحين إلى القاعة أمر جلالة الملك بأن يرقصوا . لم يشاهد البلاط قبل ذلك رقصاً بمثل هذا الخمول ولا مثل تلك القفزات التى خلت من كل رشاقة . كانت رؤوس الجميع منخفضة ، وظهورهم محدودبة ، وأذرعهم ملتصقة بخصورهم . وكان زاديج يتمتم بصوت خافت : « يا لهم من لصوص ! » . بيد أن واحداً منهم كان يقفز بخفة ورشاقة ، وهو رافع الرأس ، سديد النظرات ، ممدود الذراعين ، معتدل القامة ، مشدود المأبضين . فكان زاديج يقول : « آه ! يا له من رجل شريف ! يا له من شهم ! » وقبّل الملك هذا الراقص البارع ، وأمر بأن يعين أميناً على خزانته . وعوقب الآخرون بأفظع مما فى العالم من عقوبات : فقد انتهز كل منهم فرصة وجوده فى الدهليز وملأ جيوبه مما حواه حتى لقد تعذر عليه السير . وقد استاء الملك وحزن على الطبيعة البشرية ، إذ اكتشف ، بين أربعة وستين راقصا ، ثلاثة وستين لصاً . وأطلق على الممر المظلم اسم دهليز الإغراء .

(عن زاديج)

بروتس

المنظر الثالث

بروتس . فالريوس . بروكولوس . أعضاء مجلس الشيوخ

بروتس : إيه ، فالريوس ، لقد ألقى القبض عليهم بغير شك ، أو على الأقل عُرفوا ؟ أى حزن مغبر قاتم يغطى وجهك حتى ليخال أنه ينذر بويل أفظع ؟ أنت ترتعد .

فالريوس : تذكر أنك بروتس .

بروتس : فسّر . . .

فالريوس : أخشى أن أزيدك إيضاحاً (يناوله لوحات) انظر أيها السيد ؛ اقرأ ، تعرف على المتهمين .

بروتس : (يتناول اللوحات) أتخدعيننى يا عينى ؟ يا للأيام المنكرة ! إيه أيها الولد التعس ! تيبريتوس ؟ ولدى ! معذرة أيها الشيوخ . . . هل قبض على الخائن ؟

فالريوس : لقد حاول أن يقاوم مع اثنين من المتآمرين .

فضلوا الموت على التسليم . فزقت الطعنات جسمه ،
أيها السيد ، فهوى إلى جانبهما : ولكن بقى أن
أنبئك بما هو أشد إيلاماً لك ولروما بأسرها ،
ومن نفسى أوقع .

بروتس : ماذا أسمع ؟

فالريوس : أعد النظر إلى هذه القائمة الرهيبة ، التى عثر عليها
بروكولوس عند مسّالا .

بروتس : إذن فلتقرأ . . . أرانى أرتعش وأرتعد . أيتها
السماء ! طيطس !

(يقع بين ذراعى بروكولوس)

فالريوس : صادفته بالقرب من هذا المكان ، أعزل ، طريداً
هائماً ، يائساً يملأ الرعب نفسه . ربما أكره على
هذا الاعتداء الشنيع .

بروتس : هيا أيها الآباء المجندون ، عودوا إلى مجلس الشيوخ ؛
لم يعد من حقى أن أتبوأ مكانى فيه : اذهبوا ، امحوا
سلالتى الأثيمة عن آخرها ؛ عاقبوا الوالد فيها ،
فتشوا عن منبع دمائها فى خاصرتى بغير رحمة . لن
أتبعكم ، لئلا يحول وجودى دون انتقام روما ،
أو يثنيها عنه .

المنظر الرابع

بروتس

بروتس : أيتها الآلهة العظيمة ، إن رغباتى بأسرها تخضع لأوامرك ! أيتها الآلهة المنتقمة لشرائعنا ، المنتقمة لبلادى ، لقد كنت تعتمدين على يدى لتشيدى صرح حريتنا وعدالتها الخالدة : أتريدين تحطيم هذه الأسس المقدسة ؟ وهل تسلحين ولدى لهدم أعمالك ؟ آه ! أن يكون تيبريوس ، فى ثورة من جنونه ، قد ساعد طغاتنا ، وخان وطنه ، فهذا لا يمنع من أن الضربة قاسية ، والخائن ابنى ! ولكن طيطس ! البطل ، المحب لبلاده ! فى اليوم الذى يهنأ فيه بما ناله من مجد تكريماً لانتصاره ، طيطس الذى توجته بيدى فى الكابيتول ! أمل شيخوختى وأمل روما ! طيطس ! يا للآلهة !

المنظر الخامس

بروتس . فالريوس . حاشية . جند

فالريوس : شاءت إرادة مجلس الشيوخ السامية أن تصدر بنفسك الحكم على ابنك .

بروتس : أنا ؟

فالريوس : أنت وحدك .

بروتس : وهل قرر بشأن الآخرين ؟

فالريوس : لقد حكم على باقى المتآمرين أيها السيد ، وربما قضوا نحبهم فى اللحظة التى أتكلم فيها .

بروتس : والمجلس يكل إلى وحدى حظ ولدى ؟

فالريوس : يعتقد أنه مدين لفضائلك بهذا الشرف النادر .

بروتس : أى وطنى !

فالريوس : ماذا أقول للمجلس أيها السيد ؟

بروتس : إن بروتس يقدر ثمن هذا الشرف الرفيع الذى لم يسع إليه . . . ولسوف يكون جديراً به . . . ولكن ابنى سلم بدون مقاومة ؛ ربما . . . معذرة إذا كنت أحاول أن أشك : لقد كان ساعد روما ، وأشعر بأننى أحبه .

فالريوس : أيها السيد ، إن تولى . . .

بروتس : ماذا ؟

فالريوس : إن تولى أيدت ، فى نفس اللحظة ، هذا الشك الفظيع .

بروتس : كيف ذلك أيها السيد ؟

فالريوس : ما إن وقع نظرها على تلك الأماكن ، وشاهدت آلة التعذيب ، حتى ختمت بيدها قائمة الضحايا المؤلمة ، وهوت ، ولفظت النفس الأخير . لقد ضحته لشرائعنا بذلك الأثر التعس الباقى من ملوكنا الأشقياء . فلئن كانوا قد خانونا ، أيها السيد ، فذلك لأجلها . إننى أحترم الحزن الأبوى فى بروتس ؛ ولكن تولى ، وهى تحتضر ، أدارت عينيها المثقلتين نحو هذه الأماكن وذكرت ابنك .

بروتس : يا للآلهة !

فالريوس : عليك أنت أن تحكم على جريمته . فاحكم ، أو اصفح ، أو اضرب الضحية ؛ فروما ترقب وستوافق على ما سوف يفعله بروتس .

بروتس : أيها الجند ، احضروا طيطس أمامى .

فالريوس : أنا ذاهب أيها السيد ، وإنى لواثق من فضيلتك ؛ إن عقلى المشدوه يرثى لك ويعجب بك ؛ سأذهب إلى المجلس وجلا لأقف على عظمة نفسك وأحزانك.

المنظر السادس

بروتس . بروكولوس

بروتس : كلا ، فكلما أمعنت فى التفكير ضعف ما تصورته من تآمر ابنى على خراب الرومان : كان حبه لأبيه ولروما عظيماً ؛ لا يمكن أن ينسى المرء نفسه إلى هذا الحد فى يوم واحد . لا أستطيع أن أفكر فى ذلك ، إن ابنى غير مذنب .

بروكولوس : إن مسالا ، الذى حاك خيوط هذه المؤامرة النكراء ، أراد أن يحتمى بهذا الاسم العظيم ؛ ربما كانوا من الحاقدين على مجده ، وهم يحاولون تدنيس اسمه .

بروتس : ليت السماء تؤيد قولك !

بروكولوس : إنه آخر من بقى من أولادك . فسواء أكان مذنباً أم لا فى هذه المؤامرة المشئومة ، فإن المجلس

المتسامح يكل إليك مصيره . إن حياته فى أمان ما دامت بين يديك . ستعرف كيف تحتفظ للدولة بهذا الرجل العظيم ، وأنت فى النهاية والد .

بروتس : أنا قنصل روما .

المنظر السابع

بروتس . بروكولوس . طيطس فى الصدر مع الجيد

بروكولوس : ها هو ذا .

طيطس : هذا بروتس ! يا لهذه اللحظات المؤلمة ! فيا أيتها الأرض افغرى فاك تحت خطواتى المتداعية ! أيها السيد اسمح . . .

بروتس : وقوفاً أيها الغر الجسو ! جعلتنى الآلهة أباً لولدين كنت أحبهما . وقد فقدت أحدهما . آه ! يا طيطس التعس . هل بقى لى الآخر ؟

طيطس : كلا . لم يبق لك .

بروتس : إذن . رُدّ على قاضيك ، يا عار حياتى ! (يجلس) هل اعتزمت أن تذل وطنك ، وتسلم أباك لحكم المستبد الغاشم ؟ هل تعمدت أن

تخون عهدك ؟

طيطس : لم أعتزم أمراً . كنت أنضح بسم قتّال ما زلت أكتوى بناره . كنت أجهل نفسى وما زلت أبحث عنها ؛ ما زال قلبي مشدوهاً من ضلاله . لقد تجاوز حده فضلُ لحظة . وتلك اللحظة حملتنى عاراً أبدياً . وصيرتنى مجرماً عتياً فخنت وطناً طالما أحببته وما زلت أحبه . ولكن عندما مرت تلك اللحظة عاودتنى الوساوس ، وتجرعت غصص البلية والمكاره ، وأثقل على وخز الضمير فانتقم منى لبلادى . وحق لروما أن ترقب حكمك على . وهى ترمقك بأنظارها وتنتظر موتى فلا تطل انتظارها . إنها فى حاجة إلى مثل وعبرة . لا بد أن تروع الرومان بعذابى ، وأن يكون هذا العذاب مساوياً لجرمى ، لئلا يكون فيهم من تسول له نفسه التشبه بى واقتفاء أثرى . سيخدم موتى روما كما خدمتها حياً . وإذ ذاك ، فدمى ، الذى خدم وطنى ولم يلوث طهره إلا اليوم ، لا يهراق إلا فى سبيل الحرية والوطن .

بروتس : عجيب وحق الآلهة ، خيانة مروعة مع شجاعة

نادرة ! جرم وفضيلة . ما أفظع هذا الامتزاج الغريب ! أين ؟ تحت أكاليل الغار ، وبين هذه الأعلام التى كان يرويها بدمائه فيزيدها روعة فى نظرى ! أى شيطان أوعز إليك بهذا الطيش وأغراك ؟

طيطس : جميع الشهوات . ظمأ إلى الانتقام ، ورغبة فى العلا ، وحقد دفين ، وثورة غضب طائشة . . .

بروتس : أتم يا تعس .

طيطس : جرم أفظع ، نار أخذت على مشاعرى وحواسى فكانت كل جريمتى إن لم تزدها شناعة . أرانى أهينك بمثل هذا الاعتراف الزرى فهو لا ينفع روما . لقد بلغ شقائى القمة وتبوأ عقلى ذروة الجنون : اختم جرائمى ، ويأسى ، وحياتى ، وعارك ، وعارى . ولكن إذا كنت فى الحروب إليقد تعقبت الأثر الذى قادتنى خطواتك ، إذا كنت قد تشبهت بك ، إذا كنت أحببت وطنى ، فلسوف يكون وخز الضمير عذاباً أفظع لو أنهم ترسموا خطواتى . (يقع جاثياً عند قدميه) افتح ذراعيك لهذا التعس ؛ قل له ، على

الأقل ، : « ولدى ، إن بروتس لا يكرهك » .
فهذه الكلمة وحدها ، إذ تعيد إلى فضائلى
ومجدى ، ستدفع عن ذكراى ما أنا فيه من
عار . سيقولون إن طيطس ، إذا نزل عند
الأموات ، قد حظى بنظرة منك ثمناً لوخز
ضميره ، وإنك ما زلت تحبه ، وإن ابنك بالرغم
من جريمته ، يحمل تقديرك فى لحده .

بروتس : إن وخز ضميره ينتزعه منى . أى روما ! أى
وطنى ! . . . بروكولوس . . . قودوا ولدى
إلى الموت . قف يا تمثال الذعر والحنان ، قف
أيها السند العزيز الذى طالما تمنيته لشيخوختى ؛
تعال وقبّل أباك : لقد اضطررت إلى الحكم
عليك ؛ ولو لم يكن هنا غير بروتوس ، إذن
لأوشك أن يصغى إليك . إن دموعى ، وأنا
أكلمك تغمر وجهك : اذهب ، سر إلى العذاب
بشجاعة أوفر ؛ اذهب ، ولا تضعف أمام
حنانك . كن رومانياً أكثر منى ، ولتعجب بك
روما وهى تنتقم منك .

طيطس : وداعاً : سأموت وأنا أهل لأبى .

(يُقاد خارجاً) .

المنظر الثامن

بروتوس . بروكولوس

بروكولوس : أيها السيد ، إن المجلس بأكمله ، إذ يقدم لك خالص العزاء ، يرتعد من الضربة التى أصابتك .

بروتوس : أنت تعرف بروتس ، ثم تجسر على تعزيته ! فكر فى أنهم يدبرون هجوماً جديداً علينا : إن روما وحدها تحظى برعايتى ؛ وقلبى لا يعرف غيرها . هيا ، وليحل شعب روما ، فى هذه اللحظة الرهيبة ، محل ابنى الذى ضحيت به لأجله ؛ ولأختم ، على الأقل ، حياتى التعسة كما يجب أن يموت لو أنه حى يدفع الشر عن الوطن .

المنظر العاشر

بروتس . بروكولوس . عضو الشيوخ

الشيخ : أيها السيد . . .

بروتس : هل قضى ولدى ؟

الشيخ : لقد انتهى . . . وعيناى . . .

بروتس : إن روما حرة وكفى . . . فلنشكر الآلهة .

(الفصل الخامس من مسرحية بروتس)

فهرست

